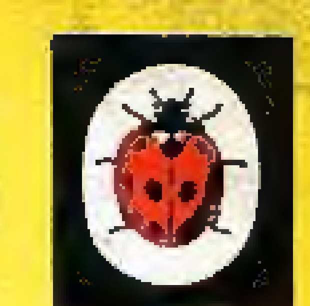


من سلسلة
ليديبرد

الفنّانون العظام

الجزء الأول

روبنز







البلاد المنخفضة
انكلترا
بحر الشمال
أمستردام
هارلم
ليدن
دلفت
أتريخت
روتردام
هولندة
ڤيرمير
مكان الولادة: دلفت
مكان عمله الرئيسي: دلفت
رمبراندت
مكان الولادة: ليدن
مكان عمله الرئيسي: أمستردام
هانوڤر
وستفاليا
بروج
انتورب
الفلاندرز
غنت
بلجيكا
بروكسل
روبنز
مكان الولادة: زيغن
مكان عمله الرئيسي: انتورب
فرنسا
الجنوب
ليبيج
كولون
زيغن

عِنْدَما نَعْرِفُ بَعْضَ التَّفْصيلاتِ الخَفِيَّةِ لِحَياةِ كِبارِ الفَنّانينَ وطَبائِعِهِمْ ، والأَثَرَ الّذي تَرَكَتْهُ البيئَةُ ، الّتي كانُوا يَعيشُونَ فيها ، عَلَى أَعْمالِهِمْ ، نَسْتَطيعُ أَنْ نَتَذَوَّقَ هٰذِهِ الأَعْمالَ بِمُتْعَةٍ أَكْثَرَ عِنْدَما نَزُورُ مُتْحَفًا لِلفُنُونِ .

وهٰذا الكِتابُ يَرْوي شَيْئًا عَنْ حَياةِ **رُوبِنْز ورَمْبرَنْدت وفيرْمير** . كما أَنَّ فيهِ صُوَرًا رائِعَةً مُلَوَّنَةً تُصَوِّرُهُمْ في أَثْناءِ قِيامِهِمْ بِإِنْتاجِ رَوائِعِهِمُ العَظيمَةِ .

إِنَّهُ كِتابٌ كَفيلٌ بِأَنْ يَسْتَهْوِيَ الأَوْلادَ ، ويَأْخُذَ بِأَلْبابِهِمْ : بَلْ إِنَّهُ لَيَسْتَطيعُ أَنْ يَسْتَحْوِذَ عَلَى مَشاعِرِ كَثيرِينَ مِنَ الكِبارِ .

الفَنّانُونَ الوارِدُ ذِكْرُهُمْ في هذا الكِتابِ :

پيتَرپُول رُوبِنْز (١٥٧٧ – ١٦٤٠)

هارمنزون ڤان راين رَمْبراندت (١٦٠٦ – ١٦٦٩)

جان ڤيرمير (١٦٣٢ – ١٦٧٥)

النـاشـرون:

مكتبة لبنان — بيروت
ليديبرد بوك ليمتد — لافبورو
لونغمان — هارلو



الفَنّانون العِظام

تأليف : دوروثي آيتشيسون
نقلته الى العربية : بهيجة كرم
وضع الرسوم : مارتن آيتشيسون

طبع في انكلترا © الطبعة الأولى ١٩٧٤
من كتب ليديبرد



رُوبِنْز (١٥٧٧ – ١٦٤٠)

وُلِدَ بِيتَرْبُول رُوبِنْز سَنَةَ ١٥٧٧ ، وهُوَ يَنْحَدِرُ مِنْ أُسْرَةٍ كانَتْ تُقيمُ في أَنْتورْبَ ، الَّتي تَقَعُ في تِلْكَ المِنْطَقَةِ مِنَ الأَراضي المُنْخَفِضَةِ الَّتي يُطْلَقُ عَلَيْها الآنَ اسْمُ بَلْجيكا .

كانَتْ هُولَنْـدة وبَلْجيكا في تِلْكَ الأَيّامِ عِبارَةً عَنْ مَجْموعَةِ أَقاليمَ مُتَفَرِّقَةٍ تَحْكُمُها إِسْبانْيا ، وكانَتْ شُعوبُها قَدْ بَدَأَتْ تَتَمَرَّدُ عَلَى حُكّامِها المُتَعَسِّفينَ . فهَرَبَ والِدُ رُوبِنْز مِنَ الإِسْبانِ إِلَى أَلْمانْيا ، وهُناكَ في بَلْدَةٍ صَغيرَةٍ تُدْعَى « زيغنَ » وُلِدَ رُوبِنْز . عاشَ رُوبِنْزُ ، حَتَّى التّاسِعَـةِ مِنْ عُمْرِهِ ، مَعَ والِدَيْهِ وأَخيهِ في « كُولُون » . وفي سَنَةِ ١٥٨٧ ماتَ والِدُهُ وعادَتْ الأُمُّ بِوَلَدَيْها الصَّغيرَيْنِ إِلَى أَنْتورْبَ .

ذَهَبَ رُوبِنْزُ إِلَى المَدْرَسَةِ في أَنْتورْبَ ، وتَعَلَّمَ اللّاتينيَّةَ واليُونانيَّةَ ، وأَرادَتْ والِدَتُهُ أَنْ يَلْتَحِقَ بالبَلاطِ . فَلَمّا بَلَغَ الثّالِثَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ أَرْسَلَتْهُ لِيَعْمَلَ كَصَبِيٍّ في حاشِيَةِ أَميرَةٍ مُسِنَّةٍ (مَرْجريت دُو ليني) . ولَمْ تَرُقْ هٰذِهِ الحَياةُ لِصَبِيٍّ صَغيرٍ بَدَأَتْ تَتَفَتَّحُ لَدَيْهِ مَوْهِبَةُ الرَّسْمِ .

وطَلَبَ رُوبِنْزُ مِنْ أُمِّهِ أَنْ تُنْقِذَهُ مِنَ البَلاطِ ، وفي سَنَةِ ١٥٩١ ذَهَبَ لِيَدْرُسَ عِنْدَ رَسّامِ مَناظِرَ طَبيعيَّةٍ يُدْعَى « تُوبياس فيرهخْت » . وبَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ ذَهَبَ لِلْعَمَلِ مَعَ فَنّانٍ آخَرَ يُدْعَى « آدَمْ فان نُورت » حَيْثُ أَمْضَى أَرْبَعَةَ أَعْوامٍ في سْتُوديُو ذٰلِكَ الفَنّانِ ، حَيْثُ امْتَزَجَتِ الخُشونَةُ والفَوْضَى بالحَيَويَّةِ . ثُمَّ تَتَلْمَذَ رُوبِنْزُ عَلَى أُسْتاذٍ ثالِثٍ عُرِفَ بالذَّكاءِ وسَعَةِ الحيلَةِ وعَدَمِ الكَفِّ عَنِ السَّفَرِ والتَّرْحالِ ، يُدْعَى « أُوتُوفان فينَ » ، وظَلَّ رُوبِنْزُ يَعْمَلُ في سْتُوديُو ذٰلِكَ الرَّجُلِ حَتَّى سَنَةِ ١٦٠٠ .

يَجِدُ بِيتَر بُول رُوبِنْز حَياتَهُ كَصَبِيٍّ في بَلاطِ الأَميرَةِ مُمِلَّةً لِلْغايَةِ



وكانَ رُوبِنْزُ شابًّا وَسِيمًا طَوِيلَ القامَةِ أَشْقَرَ الشَّعْرِ ، يَعْرِفُ اللاتِينِيَّةَ واليُونانِيَّةَ ، كما تَعَلَّمَ أَنْ يَتَحَدَّثَ بالفَرَنْسِيَّةِ والإِيطالِيَّةِ والإِسْبانِيَّةِ . هٰذا بالإِضافَةِ إِلَى لُغَتِهِ الأَصْلِيَّةِ الفَلَمَنْكِيَّةِ .

وفي سَنَةِ ١٦٠٠ ، عِنْدَما بَلَغَ رُوبِنْزُ الثّالِثَةَ والعِشْرِينَ مِنْ عُمْرِهِ ، ذَهَبَ إِلَى إِيطاليا حَيْثُ عاشَ مُعْظَمُ الرَّسّامِينَ العِظامِ . وقابَلَ في البُنْدُقِيَّةِ (فينيسْيا) دُوق مانتُوا الَّذي عَيَّنَهُ رَسّامًا في بَلاطِهِ . وصَحِبَهُ مَعَهُ في سَفَرِهِ لِفْلُورانْسا ، حَيْثُ تَمَكَّنَ رُوبِنْزُ مِنَ الاطِّلاعِ عَلَى أَعْمالِ فَنّانِي النَّهْضَةِ مِثْلِ مايْكِل أَنْجِلُو ولِيُونارْدو دافِنْشِي ورَفائِيلَ .

وفي فْلُورانْسا نَقَلَ رُوبِنْزُ اللَّوْحَةَ الشَّهِيرَةَ لِلْفَنّانِ لِيُونارْدُو دافِنْشِي المَعْرُوفَةَ «بِمَعْرَكَةِ أَنْغِيارِي» وفُقِدَتِ اللَّوْحَةُ الأَصْلِيَّةُ بَعْدَ ذٰلِكَ ، وبَقِيَ رَسْمُ رُوبِنْزَ المَنْقُولُ عَنْها هُوَ الأَثَرَ الوَحِيدَ لِذٰلِكَ العَمَلِ العَظِيمِ ، كَذٰلِكَ نَقَلَ رُوبِنْزُ لَوْحاتٍ عَدِيدَةً لِرَفائِيلَ الَّذي كانَ قَدْ تُوُفِّيَ قَبْلَ ذٰلِكَ بِنَحْوِ مائَةِ عامٍ .

ثُمَّ ذَهَبَ رُوبِنْزُ بَعْدَ ذٰلِكَ إِلَى إِسْبانْيا ، نِيابَةً عَنْ دُوقِ مانْتُوا ، وحَمَلَ مَعَهُ إِلَى المَلِكِ صُوَرًا وهَدايا أُخْرَى ، مِنْ بَيْنِها عَرَبَةٌ تَجُرُّها سِتَّةُ جِيادٍ بُنِّيَّةِ اللَّوْنِ .

واسْتَغْرَقَتِ الرِّحْلَةُ عِشْرِينَ يَوْمًا مُرْهِقَةً ، هَطَلَتْ خِلالَها الأَمْطارُ يَوْمِيًّا ، وعَصَفَتِ الرِّياحُ ، وأَتْلَفَ الجَوُّ بَعْضَ اللَّوْحاتِ .

وبَقِيَ رُوبِنْزُ مَعَ دُوقِ مانْتُوا ثَمانِيَةَ أَعْوامٍ . وأَصْبَحَ رَسّامًا عَظِيمًا يَأْلَفُ حَياةَ البَلاطِ . وفي سَنَةِ ١٦٠٨ مَرِضَتْ أُمُّهُ ، فَأَسْرَعَ عائِدًا إِلَى وَطَنِهِ . ولٰكِنَّ أُمَّهُ ماتَتْ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ أَنْتُورْب .

المَطَرُ والرِّياحُ يُتْلِفانِ بَعْضَ الصُّوَرِ الَّتي يَحْمِلُها رُوبِنْزُ لِمَلِكِ إِسْبانْيا



بَقِيَ رُوبِنْز بَعْدَ وَفاةِ والِدَتِهِ في أَنْتْوِرْب ، وَلَمْ يَعُدْ إِلَى إِيطاليا . وكانَتِ المَدِينَةُ قَدْ قاسَتْ كَثِيرًا مِنَ الحُرُوبِ بَيْنَ إِسْبانْيا والأَراضِي المُنْخَفِضَةِ ، وكانَ الهُولَنْدِيُّونَ قَدْ سَدُّوا نَهْرَ شِلْتَ ، فَنَتَجَ عَنْ ذٰلِكَ كَسادٌ في التِّجارَةِ ، ونَزَحَ كَثِيرُونَ مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ حَتَّى غَطَّتِ الحَشائِشُ الشَّوارِعَ .

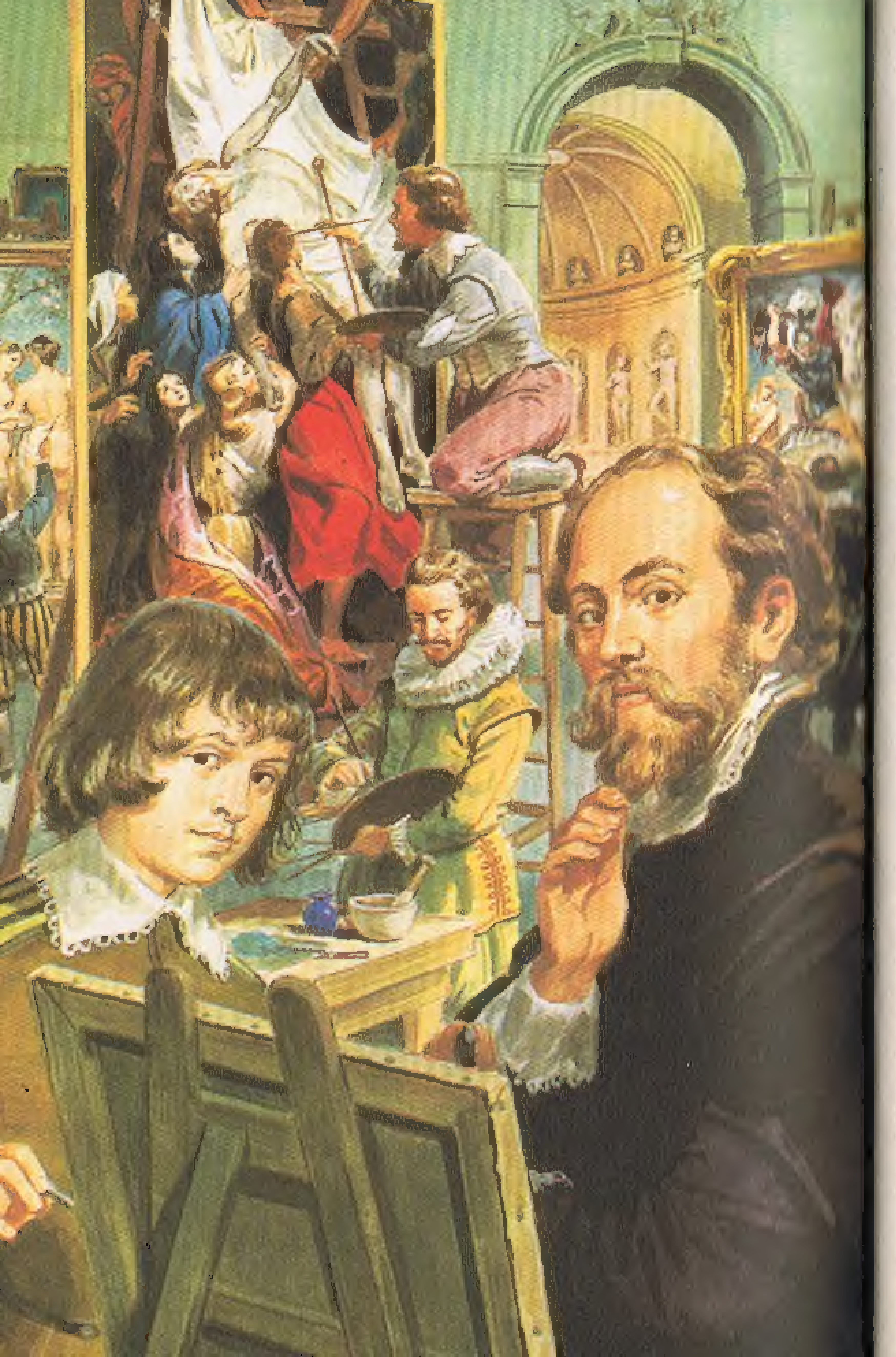
وكانَ حاكِما المَدِينَةِ أَمِيرَةً اسْمُها إِيزابِيلَّا وزَوْجَها أَلْبِرْت ، وقَدْ رَحَّبا بِرُوبِنْز وعَيَّناهُ رَسّامًا لِلْبَلاطِ بِمُرَتَّبٍ قَدْرُهُ خَمْسُمِائَةِ فُلُورِين ، فَقَبِلَهُ رُوبِنْز ، عَلَى أَنْ يُسْمَحَ لَهُ بالعَيْشِ في أَنْتْوِرْبَ ، لا في البَلاطِ في بُرُوكْسِلَ .

وتَزَوَّجَ رُوبِنْز سَنَةَ ١٦٠٩ إِيزابِيلَّا بْرانْتْ ، وهِيَ مِنْ أُسْرَةٍ مُحْتَرَمَةٍ . وكانَتْ شابَّةً ذَكِيَّةً في الثّامِنَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِها . وسَعِدَ رُوبِنْز بِتَزَوُّجِهِ بِها ، وقَدْ رَسَمَها مِرارًا ، وفي إِحْدَى الصُّوَرِ يَبْدُو كِلاهُما مَعًا ، وقَدِ ارْتَدَيا ثِيابًا جَمِيلَةً ، وخَلْفَهُما الأَشْجارُ الجَمِيلَةُ المُزْدَهِرَةُ في حَدِيقَتِهِما .

واشْتَرَى رُوبِنْز مَنْزِلًا أَنِيقًا في أَنْتْوِرْبَ ، وأَضافَ إِلَيْهِ حَدِيقَةً إِيطالِيَّةً ذاتَ سِياجٍ مُنْخَفِضٍ مِنَ النَّباتاتِ المَزْرُوعَةِ ، وذاتَ أَشْجارٍ اسْتُنْبِتَتْ داخِلَ أُصُصٍ . كَما أَقامَ حُجْرَةً فَنِّيَّةً (اسْتُودْيُو) كَبِيرَةً وقَوْسَ نَصْرٍ . وكانَتْ بالمَنْزِلِ شُرْفَةٌ عَلَى شَكْلِ نِصْفِ دائِرَةٍ ، عَرَضَ فِيها التَّماثِيلَ الَّتِي حَرَصَ عَلَى اقْتِنائِها .

ونَجَحَ رُوبِنْز في أَنْتْوِرْبَ نَجاحًا هائِلًا . وزارَهُ في الاسْتُودْيُو كَثِيرٌ مِنَ النّاسِ . وكانَ يَعْمَلُ جادًّا طُولَ يَوْمِهِ . وكانَ إِذا ما شَعَرَ بالتَّعَبِ يَمْتَطِي حِصانَهُ ، في جَوْلَةٍ عَلَى شاطِئِ نَهْرِ شِلْتَ .

رُوبِنْز يَرْسُمُ نَفْسَهُ مَعَ إِيزابِيلَّا في حَدِيقَةِ مَنْزِلِهِما بِأَنْتْوِرْب .



وأَصْبَحَ رُوبِنْزُ شَهِيرًا حتَّى رَغِبَ كَثِيرونَ مِنَ الفَنّانِينَ الشُّبّانِ في العَمَلِ مَعَهُ. وفي سَنَةِ ١٦١١ اضْطُرَّ إلَى رَفْضِ مِئَةٍ مِنَ المُتَقَدِّمِينَ لِكَيْ يَتَتَلْمَذُوا لَهُ.

وتُوجَدُ صُوَرٌ عَدِيدَةٌ تَحْمِلُ اسْمَ رُوبِنْزَ. ولا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ رُوبِنْزُ قَدْ رَسَمَها كُلَّها بِنَفْسِهِ، والأَعْمالُ الوَحِيدَةُ الَّتِي يُمْكِنُ الجَزْمُ بِأَنَّها أَعْمالُهُ هِيَ تِلْكَ النَّماذِجُ الزَّيْتِيَّةُ الصَّغِيرَةُ الَّتِي كانَتْ تُمَثِّلُ لَوْحاتِهِ الكَبِيرَةَ. وكانَ المَنْهَجُ الَّذِي اتَّبَعَهُ هُوَ عَمَلَ تِلْكَ النَّماذِجِ لِتَلامِيذِهِ، والسَّماحَ لَهُمْ بِتَكْبِيرِها وتَلْوِينِها بَعْدَ ذٰلِكَ، ثُمَّ يَضَعُ رُوبِنْزُ لَمَساتِهِ الأَخِيرَةَ ويُوَقِّعُ عَلَيْها.

ودَرَّبَ رُوبِنْزُ تَلامِيذَهُ عَلَى تَلْوِينِ جَمِيعِ الطُّيُورِ والحَيَواناتِ والأَسْماكِ والأَزْهارِ في رُسُومِهِ، وكَذٰلِكَ الغاباتِ والأَنْهارِ والمَناظِرِ الطَّبِيعِيَّةِ، ومِنْ بَيْنِ أُولٰئِكَ التَّلامِيذِ أَنْتُونِي فانْ دايْكُ، الَّذِي أَصْبَحَ بَعْدَ ذٰلِكَ فَنّانًا شَهِيرًا في إنْجِلْتِرا. ويُقالُ إنَّ رُوبِنْزَ كانَ يَرْسُمُ، ويَسْتَقْبِلُ زائِرِيهِ، ويَسْتَمِعُ إلَى شَخْصٍ يَقْرَأُ لَهُ شَيْئًا ما، ويُمْلِي خِطابًا عَلَى شَخْصٍ آخَرَ، يَفْعَلُ ذٰلِكَ كُلَّهُ في وَقْتٍ واحِدٍ، فلا عَجَبَ أَنْ قالَ عَنْ نَفْسِهِ مَرَّةً: «مِنْ بَيْنِ النّاسِ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ أَنا أَكْثَرُهُمْ جَمِيعًا عَمَلًا، وأَشَدُّهُمْ مُعاناةً لِلإرْهاقِ».

وذاعَتْ شُهْرَةُ رُوبِنْزَ بِسَبَبِ النَّماذِجِ المَحْفُورَةِ والرَّواسِمِ (الكليشيهاتِ) الطِّباعِيَّةِ الخَشَبِيَّةِ لِصُوَرِهِ، وهٰكَذا أَلَمَّ بِأَعْمالِهِ الفَنِّيَّةِ أُناسٌ لَمْ يَحْظَوْا بِرُؤْيَةِ لَوْحاتِهِ نَفْسِها، إلَّا أَنَّهُ صادَفَ عَنَتًا مَعَ الحَفّارِ الَّذِي أَصَرَّ عَلَى أَنَّ طَبَعاتِ الرَّواسِمِ عَنِ الصُّوَرِ المَحْفُورَةِ اكْتَسَبَتْ شُهْرَتَها لِدِقَّتِهِ هُوَ في الحَفْرِ، ولَيْسَ لِكَوْنِها مِنْ لَوْحاتِ رُوبِنْزَ الزَّيْتِيَّةِ.

وكانَ رُوبِنْزُ إدارِيًّا قَدِيرًا، وبِفَضْلِ مَصْنَعِ صُوَرِهِ وَفَّرَ عَمَلًا لِعَدَدٍ مِنَ الفَنّانِينَ لَمْ يَكُونُوا لِيَنْجَحُوا لَوْ أَنَّهُمْ عَمِلُوا وَحْدَهُمْ.

رُوبِنْزُ يُمْعِنُ النَّظَرَ في بَعْضِ أَعْمالِ أَنْطُونِي فانْ دِيْكَ، الَّذِي اعْتَبَرَهُ أَمْهَرَ الفَنّانِينَ الَّذِينَ اسْتَخْدَمَهُمْ في مَصْنَعِ صُوَرِهِ.



وفي ذٰلِكَ الوَقْتِ كانَتْ فَرَنْسا وإسْبانْيا والبِلادُ المُنْخَفِضَةُ تَتطاحَنُ فِيما بَيْنَها عَلَى السُّلْطَةِ والنُّفوذِ . ومَعَ ذٰلِكَ كانَتْ كُلٌّ مِنْها تَرْغَبُ في أَنْ تَتَجَنَّبَ الحَرْبَ . وهَيَّأَتْ هٰذِهِ الظُّروفُ الفُرْصَةَ لِروبِنْز لِيُصْبِحَ دِيبْلوماسِيًّا بِجانِبِ عَمَلِهِ كَرَسّامٍ ، وأَحَبَّهُ الجَميعُ وَوَثِقُوا بِهِ ، وأَمْكَنَهُ أَنْ يُسافِرَ إلَى الخارِجِ كَفَنّانٍ في ظاهِرِ الأَمْرِ ، ولٰكِنَّهُ كانَ في الحَقيقَةِ مُمَثِّلًا لِحُكّامِ بَلَدِهِ .

وذَهَبَ روبِنْزُ عِدَّةَ مَرّاتٍ لِبارِيسَ لِزَخْرَفَةِ قَصْرِ لوكْسُمْبورْج بِصُوَرٍ مِنْ حَياةِ المَلِكَةِ الأُمِّ ، وهُناكَ تَقابَلَ مَعَ السّاسَةِ الفَرَنْسِيِّينَ . وكَذٰلِكَ مَعَ دُوقِ بَكِنْجهامَ الإنْجليزِيِّ .

وفي سَنَةِ ١٦٢٢ ماتَ حاكِمُ المَدينَةِ أَلْبِرْتُ ، فَزادَ اعْتِمادُ إيزابيلا عَلَى روبِنْزَ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، وجَعَلَتْهُ نَبيلًا وسَيِّدًا في البَلاطِ المَلَكِيِّ .

وأُرْسِلَ روبِنْزُ إلَى إسْبانْيا في مُهِمَّةٍ دِيبْلوماسِيَّةٍ ، وحَرَصَ هُناكَ عَلَى أَنْ يُواصِلَ رَسْمَ لَوْحاتِهِ ، والتَقَى الفَنّانَ الإسْبانِيَّ العَظيمَ « فيلاسْكيز » وجالَ مَعَهُ في الجِبالِ خارِجَ مَدْريدَ ، كما رَسَمَ صُوَرًا لِأَفْرادِ الأُسْرَةِ المَلَكِيَّةِ الإسْبانِيَّةِ .

وفي سَنَةِ ١٦٢٦ ماتَتْ إيزابيلّا بْرانْتُ زَوْجَتُهُ بالطّاعُونِ ، فحاوَلَ أَنْ يَنْسَى أَحْزانَهُ عَنْ طَريقِ التَّفَرُّغِ لِلأَعْمالِ السِّياسِيَّةِ ، ولٰكِنَّهُ كَثيرًا ما كانَ يَشْعُرُ بالسَّأَمِ والتَّقَزُّزِ لِخِداعِ رِجالِ البَلاطِ ، كما كانَ يَشْعُرُ بالحُزْنِ لِاضْطِرارِهِ إلَى مُفارَقَةِ وَلَدَيْهِ الصَّغيرَيْنِ ، أَلْبِرْت ونيقولا ، اللَّذَيْنِ يُمْكِنُ مُشاهَدَةُ صُورَتِهِما في مُتْحَفِ الفَنِّ القَوْمِيِّ بِلَنْدَنَ .

روبِنْزُ وفيلاسْكيزُ في الجِبالِ بالقُرْبِ مِنْ مَدْريدَ



ومِنَ الطَّريفِ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ رُوبِنْزَ زارَ إِنْجِلْترا مُوفَدًا مِنْ مَلِكِ إِسْبانْيا الَّذي كانَ لا يَزالُ حاكِمًا في الأَراضي المُنْخَفِضَةِ ، لِيُنَظِّمَ مَسْأَلَةَ تَبادُلِ السُّفَراءِ ، ومَكَثَ رُوبِنْزُ في إِنْجِلْترا مُدَّةَ عامٍ تَقْرِيبًا ، ولَمْ يَتَطَلَّعْ رُوبِنْزُ لِهٰذِهِ الزِّيارَةِ بِلَهَفٍ ، لِأَنَّهُ كانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ الإِنْجِليزَ قَوْمٌ لا يَسْتَقِرّونَ عَلى رَأْيٍ ، غَيْرَ أَنَّهُ بِمُرورِ الوَقْتِ أُعْجِبَ بِهِمْ ، وأَحَبَّهُ المَلِكُ تشارْلز الأَوَّلُ ، وزارَ رُوبِنْزُ جامِعَةَ كَمْبِرِدْجَ ومَنَحَتْهُ دَرَجَةَ ماجِسْتِيرَ في الفُنونِ ، كما أَنَّ المَلِكَ تشارْلزَ الأَوَّلَ أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِلَقَبِ « سِيرْ » ، وحاوَلَ أَنْ يُقْنِعَهُ بالإِقامَةِ والعَمَلِ في البَلاطِ الإِنْجليزيِّ .

ورَسَمَ رُوبِنْزُ صُورَةَ القِدّيسِ جُورْج والتِّنّينِ وقَدَّمَها هَدِيَّةً لِلْمَلِكِ ، وفيها رَسَمَ وَجْهَ القِدّيسِ كَوَجْهِ المَلِكِ . ووَجْهَ الأَميرَةِ الَّتي ذَبَحَ القِدّيسُ التِّنّينَ مِنْ أَجْلِها كَوَجْهِ هِنْرِيتا مارِيّا زَوْجَةِ المَلِكِ وخَلْفَها مَنْظَرُ وادي التِّيْمزِ .

ولَمّا عادَ رُوبِنْزُ مِنْ إِنْجِلْترا رَسَمَ تِسْعَ صُوَرٍ كَبيرَةٍ لِسَقْفِ القَصْرِ الأَبْيَضِ . وتَحْكي الصُّوَرُ تاريخَ حَياةِ المَلِكِ جِيمْس الأَوَّلِ ، غَيْرَ أَنَّ رُوبِنْزَ لَمْ يَضْبِطِ المَقاييسَ بِحِسابِ القَدَمِ الإِنْجليزيِّ ، فَلَمْ تُناسِبْ مَقاييسُ اللَّوْحاتِ المِساحاتِ المُعَدَّةَ لَها . وسُرَّ المَلِكُ تشارْلز جِدًّا بِهٰذا السَّقْفِ . ولَوْ أَنَّهُ ماطَلَ طَويلًا في دَفْعِ تَكاليفِهِ ، وأَمَرَ المَلِكُ بِأَلّا تُعْقَدَ أَيُّ احْتِفالاتٍ في قاعَةِ الوَلائِمِ مُدَّةَ ثَلاثِ سَنَواتٍ حَتّى لا يُتْلِفَ دُخانُ الشُّموعِ تِلْكَ الصُّوَرَ .

المَلِكُ تشارْلز الأَوَّلُ يَمْنَحُ رُوبِنْزَ لَقَبَ « سِيرْ »



وبِمُرُورِ الوَقْتِ سَئِمَ رُوبِنْز مُهِمّاتِهِ الدِّبْلُوماسِيَّةَ ، فتَوَسَّلَ إلَى الأَمِيرَةِ إيزابِيلّا أَنْ تَسْمَحَ لَهُ بالإقامَةِ في أَنْتوِرْبَ عَلَى أَنْ يَبْقَى هُناكَ في خِدْمَتِها .

وقَرَّرَ أَنْ يَتَزَوَّجَ ثانِيَةً ، فتَزَوَّجَ فَتاةً في السّادِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِها آسْمُها هِيلِينْ فُورمانْ ، وكانَتِ الأَبْنَةَ الحادِيَةَ عَشْرَةَ لِتاجِرِ حَرِيرٍ مِنْ أَنْتوِرْبَ . ولَمّا كانَ قَدْ مَلَّ حَياةَ البَلاطِ ، فَقَدِ اخْتارَ تِلْكَ الفَتاةَ السّاذَجَةَ ، كما قالَ : « كَيْ لا يَحْمَرَّ وَجْهُها خَجَلًا عِنْدَما أُمْسِكُ فُرْشَتِي بِيَدِي » .

وماتَتْ الأَمِيرَةُ إيزابِيلّا ، وآخْتِيرَ أَحَدُ إخْوَةِ مَلِكِ إسْبانْيا لِيَحْكُمَ الأَراضِيَ المُنْخَفِضَةَ ، فأُقِيمَتِ احْتِفالاتٌ عامَّةٌ عِنْدَ دُخُولِهِ مَدِينَةَ أَنْتوِرْبَ . وتَوَلَّى رُوبِنْز مَسْؤُولِيَّةَ الزِّينَةِ وإقامَةِ أَقْواسِ النَّصْرِ والعَرَباتِ الرَّسْمِيَّةِ . ووُضِعَتِ العَوّاماتُ المُزَخْرَفَةُ عَلَى طُولِ طَرِيقِ النَّهْرِ الَّذِي أَقْبَلَ مِنْهُ فِرْدِينانْدُ إلَى المَدِينَةِ . وعَزَفَ المُوسِيقِيُّونَ ، ورَقَصَ الشَّعْبُ في الشَّوارِعِ ، وأُطْلِقَتِ المَدافِعُ والأَلْعابُ النّارِيَّةُ مِنْ بُرْجِ الكاتِدْرائِيَّةِ . ولكِنَّ رُوبِنْز لَمْ يَحْضُرْ هذِهِ الأَحْتِفالاتِ ، فَقَدْ أَنْهَكَهُ العَمَلُ . وكانَ مَرِيضًا طَرِيحَ الفِراشِ حِينَ وَصَلَ الحاكِمُ الجَدِيدُ .

الأَلْعابُ النّارِيَّةُ والمَواكِبُ آحْتِفالًا بِمَقْدَمِ الحاكِمِ الإسْبانِيِّ .



ولَمْ يَسْتَمِرَّ رُوبِنْزُ في سِلْكِ البَلاطِ . ولكِنَّهُ ظَلَّ مُنْهَمِكًا في الرَّسْمِ ، وقَدْ رَسَمَ صُوَرًا أُخْرَى كَثِيرَةً لِمَلِكِ إسْبانْيا . ثُمَّ مَجَّ حَياةَ المَدِينَةِ وقَرَّرَ أَنْ يَعِيشَ في قَلْعَةِ سْتِينَ مَعَ أُسْرَتِهِ . ولا يَزالُ هذا القَصْرُ العَظِيمُ قائِمًا في الرِّيفِ شَمالَ أَنْتْوِرْبَ إلى الآنَ ، وأَصْبَحَ رُوبِنْزُ سَيِّدَ القَصْرِ ، واشْتَرَى غاباتٍ وأَراضِيَ حَوْلَ المَنْزِلِ .

ونَرَى مِنْ لَوْحاتِ رُوبِنْز ما كانَتْ عَلَيْهِ هذِهِ المَعالِمُ في وَقْتِهِ ، فالقَلْعَةُ لها جِسْرٌ مُتَحَرِّكٌ ، ويُحِيطُ بِهِ خَنْدَقٌ وبُحَيْرَةٌ ومَباني المَزْرَعَةِ ويُحِيطُها رُوبِنْز في صُوَرِهِ بِمَناظِرِ تِلالٍ نائِيةٍ وأَوْدِيةٍ . مَعَ أَنَّ الأَرْضَ هُناكَ مُسَطَّحَةٌ تَمامًا . وأَحَبَّ رُوبِنْزُ الماضِيَ ، وفي إحْدَى صُوَرِهِ لِلمَنْزِلِ صَوَّرَ فُرْسانًا يَتَطاعَنُونَ بالرِّماحِ أَمامَ الجِسْرِ المُتَحَرِّكِ

وكانَ رُوبِنْزُ رَسّامَ بَلاطِ فِرْدِيناند ... ولكِنَّهُ عَمِلَ وعاشَ في هُدُوءٍ بالرِّيفِ مَعَ زَوْجَتِهِ هيلين وأَطْفالِهِما الصِّغارِ الأَرْبَعَةِ . وعانَى مِنَ النِّقْرِسِ بِضْعَ سَنَواتٍ ، وعَجَزَتْ يَداهُ شَيْئًا فَشَيْئًا عَنِ الرَّسْمِ مِنَ المَرَضِ ، ومَاتَ عامَ ١٦٤٠ ، ووُلِدَتْ آخِرُ بَناتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ .

وتَشْتَهِرُ أَعْمالُ رُوبِنْزَ بِأَلْوانِها الزّاهِيَةِ ورُسُومِها الفَخْمَةِ ، وطَغَتْ شَخْصِيَّتُهُ الحَيَّةُ عَلَى أَلْوانِهِ ، فَجَعَلَتْ صُوَرَهُ تَنْبِضُ بالحَياةِ . ويُعْتَبَرُ رُوبِنْزُ اليَوْمَ أَحَدَ الفَنّانِينَ العالَمِيِّينَ العِظامِ

رُوبِنْزُ وزَوْجَتُهُ في جَوْلَةٍ عَلَى ظُهُورِ الجِيادِ حَوْلَ مَزْرَعَتِهِما .



رَمبراندت (١٦٠٦ – ١٦٦٩)

وُلِدَ رَمبراندت فان رين في لَيدِنَ بِهولَندا سَنَةَ ١٦٠٦ . وفي ذلِكَ الوَقْتِ كانَتِ المَلِكَةُ إليزابيتُ الأُولى قَدْ تُوُفِّيَتْ حَديثًا في إنجلترا ، وكانَ شِكْسبير يَكْتُبُ مَسْرَحِيّاتِهِ . أمّا هولندا فكانَتْ قَدِ انْتَهَتْ مِنْ مَعْرَكَةِ التَّحْريرِ مِنْ حُكْمِ الإسْبانِ ، وكانَتْ مُقْبِلَةً عَلَى سَلامٍ ورَخاءٍ عَظيمٍ.

كانَ رَمبراندتُ ابنَ طَحّانٍ ، وأُمُّهُ ابْنَةَ خَبّازٍ ، وكانَ السّادِسَ مِنْ بَيْنِ سَبْعَةِ أطْفالٍ.

وكانَتْ لَيدِن – ولا تَزالُ – بَلْدَةً جامِعِيَّةً قَديمَةً شَهيرَةً ، تَقَعُ عَلَى ضِفافِ نَهْرِ الرّاينِ . وكانَ رَمبراندتُ يُطِلُّ مِنْ نافِذَتِهِ عَلَى طاحُونَتَيْ هَواءٍ تَمْلِكُهُما أُسْرَتُهُ ، ووَراءَهُما النَّهْرُ المُزْدَحِمُ بالصَّنادِلِ والسُّفُنِ الشِّراعِيَّةِ.

ولا نَعْرِفُ الكَثيرَ عَنْ طُفُولَةِ رَمبراندتَ ، ولكِنّا نَعْلَمُ أنَّهُ دَخَلَ مَدْرَسَةَ لَيدِنَ الحُكُومِيَّةَ وهُوَ في السّابِعَةِ مِنْ عُمْرِهِ ، والتَحَقَ بالجامِعَةِ في سِنِّ الرّابِعَةَ عَشْرَةَ . وكانَ هذا شَيْئًا عادِيًّا في تِلْكَ الأيّامِ . ولكِنْ سُرْعانَ ما أحَسَّ رَمبراندتُ بِعَدَمِ لِياقَتِهِ لِحَياةِ تَحْصيلِ العِلْمِ ، فطَلَبَ مِنْ والِدَيهِ السَّماحَ لَهُ بِأنْ يُصْبِحَ رَسّامًا

أرْسَلَهُ والِداهُ لِيَتَدَرَّبَ عَلَى يَدِ فَنّانٍ في لَيدِنَ يُدْعَى « جاكُوبَ فانْ سوانِنْبرخ » وعَمِلَ عِنْدَهُ الفَتَى الصَّغيرُ في الحُجْرَةِ الفَنِّيَّةِ (الاستوديو) مُدَّةَ ثَلاثِ سَنَواتٍ تَعَلَّمَ الرَّسْمَ والتَّلْوينَ في لَيدِنَ ، ولكِنَّهُ لَمْ يَجْتَمِعْ بالرَّسّامينَ الأفْذاذِ الكَثيري التَّنَقُّلاتِ والأسْفارِ إلّا في أمْسْتِرْدامَ ، حينَ ذَهَبَ إلَيها عامَ ١٦٢٤ . وهُناكَ بَدَأَ حَياتَهُ الحَقيقِيَّةَ كَرَسّامٍ.

رَمبراندت الصَّغيرُ يلعَبُ عَلَى ضِفَّةِ الرّاينِ في لَيدنَ عَلَى مَقرُبَةٍ مِنْ مَطاحِنِ الأُسْرَةِ .



اِعْتادَ مُعْظَمُ مُعاصِري رمبرانْدت مِنَ الفنانينَ الذَّهابَ إلَى إيطاليا لِدِراسَةِ أَعْمالِ الأَساتِذَةِ العِظامِ . أمّا رَمبرانْدت نَفْسُهُ فَلَمْ يَذْهَبْ إلَى إيطاليا قَطُّ ، وإنَّما تَعَلَّمَ الكَثيرَ عَنِ الصُّوَرِ الإيطالِيَّةِ مِنْ مُعَلِّمِهِ الجَديدِ بيتَر لاسْتِمان في أَمسْتِرْدامَ .

واهْتَمَّ رمبرانْدت بالصُّوَرِ الدّينِيَّةِ ، وبخاصَّةٍ صُوَرِ العَهْدِ القَديمِ ، واسْتَعْمَلَ الإنارَةَ القَوِيَّةَ والظِّلال مِمّا يُسَهِّلُ التَّعَرُّفَ عَلَى صُوَرِهِ . وقَدِ اعْتادَ رَمبرانْدت أنْ يَرْسُمَ أَهالي أمسْتِرْدامَ ، ويُظْهِرَ بَعْضَ الشَّخْصِيّاتِ في صُوَرِهِ الدّينِيَّةِ بِزِيِّ الشَّعْبِ الهُولَنْدِيِّ في ذٰلِكَ العَصْرِ .

وأَخَذَتْ أمسْتِرْدامُ في النُّمُوِّ ، وأَصْبَحَتْ مَدينَةً عَظيمَةً . وحَلَّتْ مَحَلَّ أَنْتورب كَميناءٍ رَئيسٍ في شَمالِ أُورُوبّا وعادَ رَمبرانْدت إلَى لَيدِن فَتْرَةً وَجيزَةً بَعْدَ أنْ عَمِلَ مَعَ لاسْتِمان . ثُمَّ رَجَعَ إلَى أمسْتِردامَ ، ولَمْ يَتْرُكْها بَعْدَ ذٰلِكَ طُولَ حَياتِهِ .

وفي سَنَةِ ١٦٣١ عِنْدَما كانَ رَمبرانْدت في الخامِسَةِ والعِشْرينَ مِنْ عُمْرِهِ رَسَمَ صُورَةً أَكْسَبَتْهُ شُهْرَةً واسِعَةً ، هي صُورَةُ « دَرْسِ التَّشْريحِ » . وهٰذِهِ تُصَوِّرُ لَفيفًا مِنَ الأَطِبّاءِ الهُولَنْدِيّينَ جالِسينَ حَوْلَ جُثَّةِ رَجُلٍ مَعَ أُسْتاذِهِم الدُّكْتور « تُولْب » يَشْرَحُ لَهُمْ عَضَلاتِ الذِّراعِ . وكانَ هٰذا حَدَثًا جَديدًا في كَيْفِيَّةِ تَصْويرِ مَجْموعَةٍ مِنَ الأَشْخاصِ ، فَمِنْ قَبْلُ كانَتِ المَجْموعَةُ تُصَوَّرُ غالِبًا واقِفَةً صَفًّا واحِدًا بِتَكَلُّفٍ . وأَقْبَلَ النّاسُ عَلَى هٰذا الفَنّانِ الحَديثِ لِيَرْسُمَ صُوَرَهُمْ .

يَصِلُ رَمبرانْدت لِيُخَطِّطَ صُورَتَهُ المَعْروفَة بِاسْمِ « دَرْسِ التَّشْريح »



وفَضَّلَ رَامبرانْدتُ رَسْمَ صُوَرِ أَصْدِقائِهِ والأَطِبّاءِ والمُحامينَ ورِجالِ الدِّينِ الَّذينَ كانُوا يَعيشُونَ في أَمسْتِرْدامَ . كما بَدَأَ في نَفْسِ الوَقْتِ يَرْسُمُ صُوَرًا بالأَلْوانِ لِأَغْنِياءِ النّاسِ وعُظَمائِهِمْ .

ولَمْ يَكُنْ رَمبرانْدت شابًّا وَسيمًا . ونَسْتَطيعُ أَنْ نَعْرِفَ ماذا كانَتْ عَلَيْهِ هَيْئَتُهُ مِنَ الصُّوَرِ الكَثيرَةِ الَّتي رَسَمَها لِنَفْسِهِ في أَثْناءِ حَياتِهِ . فَقَدْ كانَ أَنْفُهُ ضَخْمًا ، وشَفَتاهُ غَليظَتَيْنِ . وشَعْرُهُ أَشْعَثَ ، ويُقالُ إِنَّهُ كانَ يَمْسَحُ فُرَشَ الأَلْوانِ الزَّيْتِيَّةِ بِثِيابِهِ ، ومَعَ هذا كانَ مُبَذِّرًا ومُولَعًا بِاللِّباسِ الفاخِرِ والأَزْياءِ القَديمَةِ الَّتي كانَ يَجْمَعُها ويَعْرِضُها في الاسْتُودْيو .

ولَمَّا اسْتَقَرَّ في أَمسْتِرْدامَ عاشَ مَعَ تاجِرِ صُوَرٍ فَنِّيَّةٍ يُدْعَى « أُولِنْبورْش » وكانَ لِأُولِنْبورْش مَدْرَسَةٌ يَتَعَلَّمُ فيها الصِّغارُ التَّلْوينَ ونَقْلَ الصُّوَرِ . وهُنا اجْتَمَعَ رَمبرانْدت بِساسْكيا أُولِنْبورْش ابْنَةِ عَمِّ التّاجِرِ . وكانَتْ ساسْكيا فَتاةً يَتيمَةً مِنْ أُسْرَةٍ مُحْتَرَمَةٍ ذاتِ شَأْنٍ . ماتَ أَبُوها وتَرَكَ لَها ثَرْوَةً لا يُسْتَهانُ بِها .

تَزَوَّجَ رَمبرانْدت ساسْكيا سَنَةَ ١٦٣٤ . وكانا سَعيدَيْنِ جِدًّا . ورَسَمَ رَمبرانْدت ساسْكيا لابِسَةً مَلابِسَ شَرْقِيَّةً جَميلَةً ، ومُزَيِّنَةً شَعْرَها بِالأَزْهارِ . ورَسَمَ لِنَفْسِهِ صُورَةً وهُوَ يَضْحَكُ ويَشْرَبُ ، وساسْكيا عَلَى رُكْبَتِهِ .

وأَصْبَحَ رَمبرانْدتُ رَسّامَ العَصْرِ الَّذي يَسْتَطيعُ أَنْ يَفْرِضَ ما شاءَ مِنْ أَجْرٍ عَنْ عَمَلِهِ . مَهْما كانَ ذلِكَ الأَجْرُ باهِظًا . وكانَ كُلُّ ما يَحْتاجُ إِلَيْهِ هُوَ وساسْكيا مَنْزِلًا جَميلًا يَعيشانِ فيهِ .

رَمْبرانْدت يَرْسُمُ صُورَةً لِنَفْسِهِ مَعَ ساسْكيا ويُرَى وهُوَ شارِدُ الذِّهْنِ يَمْسَحُ فُرْشَتَهُ بِمَلابِسِهِ .



والمَنْزِلُ الَّذي اشْتَراهُ رَمبرانْدت في أَمسْتِرْدامَ لا يَزالُ قائِمًا حَتَّى يَوْمِنا هذا ، ولَوْ أَنَّهُ أُدْخِلَ عَلَيْهِ تَغْييرٌ كَبيرٌ ويَقَعُ بالقُرْبِ مِنْ نَهْرِ أَمسْتِل . وكان حَديثَ البِناءِ تَقْريبًا عِنْدَما دَخَلَهُ رَمبرانْدت وساسْكيا .

أُولِعَ رَمبرانْدت بِجَمْعِ التُّحَفِ ، فكانَ يَذْهَبُ إِلى المَزادات ويَشْتَري كَثيرًا مِنَ الأَشْياءِ الجَميلَةِ الَّتي يُمْكِنُهُ إِدْخالُها في صُوَرِهِ فيما بَعْدُ . وبالإِضافَةِ إِلى الأَزْياءِ كانَ يَشْتَري الدُّروعَ والسَّكاكينَ والسُّيوفَ والآلاتِ الموسيقِيَّةَ ، وكَذا الصُّوَرَ والتُّحَفَ المَحْفورَةَ مِنْ عَمَلِ غَيْرِهِ مِنَ الفَنّانينَ .

واهْتَمَّ رَمبرانْدت بِمُقْتَنَياتِهِ اهْتِمامًا كَبيرًا ، حَتَّى إِنَّهُ يُقالُ عَنْهُ إِنَّهُ أَرادَ أَنْ يَحْتَفِظَ بِذِكْرى قِرْدٍ أَليفٍ ماتَ عِنْدَهُ . ولَمَّا كانَ يَنْقُصُهُ قُماشُ الرَّسْمِ صَمَّمَ عَلَى إِدْخالِهِ ضِمْنَ لَوْحَةٍ لِزَوْجَيْنِ مِنَ الأَثْرِياءِ كانَ يَرْسُمُهُما حينَذاكَ . فَرَفَضَ الشَّخْصانِ ظُهورَ قِرْدٍ مَعَهُما حَيًّا أَوْ مَيْتًا وتَرَكَ الأَسْتوديو غاضِبَيْنِ . واحْتَفَظَ رَمبرانْدت بالصُّورَةِ . واسْتَخْدَمَها كحاجِزٍ في غُرْفَةِ عَمَلِهِ (دَرَفان) .

وكانَ مَنْزِلُ رَمبرانْدت باهِظَ الثَّمَنِ . ولَمْ يَكُنْ في مَقْدورِهِ أَنْ يَدْفَعَ الثَّمَنَ كامِلًا ، مَعَ أَنَّهُ كانَ يَتَقاضى مَبالِغَ جَسيمَةً ثَمَنًا لِصُوَرِهِ ، كما أَنَّ ساسْكيا قَدَّمَتْ لَهُ مَهْرًا لا يُسْتَهانُ بِهِ ، وظَلَّ رَمبرانْدت يُعاني مِنْ ضيقِ ذاتِ اليَدِ بَقِيَّةَ حَياتِهِ .

الزَّوْجانِ الثَّرِيّانِ يَرْفُضانِ السَّماحَ لِرَمبرانْدت بِإِدْخالِ صُورَةِ القِرْدِ ضِمْنَ صُورَتِهِما



ونَدأَتِ المَتاعِبُ تُرْهِقُهُ ، فماتَتْ أُمُّهُ ، ولَمْ يَعِشْ لَهُ ، مِنْ بَيْنِ أَرْبَعَةِ أَطْفالٍ وُلِدُوا لَهُ ، سِوَى واحِدٍ فَقَطْ ، عاشَ لِبِضْعَةِ شُهُورٍ ، وكانَ الكَثِيرُونَ مِنَ الأَطْفالِ حَدِيثِي الوِلادَةِ يَمُوتُونَ في تِلْكَ الأَيّامِ .

وبَعْدَ مِيلادِ ٱبْنِهِ الخامِسِ « تِيتُوسَ » مَرِضَتْ ساسْكِيا وماتَتْ سَنَةَ ١٦٤٢ تارِكَةً ثَرْوَتَها مُناصَفَةً بَيْنَهُ وبَيْنَ ٱبْنِها ، مُشْتَرِطَةً في وَصِيَّتِها أَنْ تَؤُولَ الثَّرْوَةُ إِلَى أُسْرَتِها إِذا ما تَزَوَّجَ رَمبراندت ثانِيَةً .

وبالرَّغْمِ مِنْ أَحْزانِهِ قامَ رَمبرانْدتُ بِأَشْهَرِ أَعْمالِهِ خِلالَ السَّنَةِ الَّتي ماتَتْ فِيها ساسْكِيا ، فرَسَمَ صُورَةَ « الحارِسِ اللَّيْلِيّ » الَّتي يَذْهَبُ لِرُؤْيَتِها نِصْفُ مِلْيُونِ شَخْصٍ كُلَّ عامٍ في مُتْحَفِ « رِيجكْس » في أَمسْتِردامَ وتُصَوِّرُ اللَّوْحَةُ مَجْمُوعَةً مِنَ المحارِبِينَ في أَمسْتِرْدامَ ، وقَدْ فَقَدَتْ تَدْرِيجِيًّا طابَعَها العَسْكَرِيّ ، وأَصْبَحَتْ وكَأَنَّها في نادٍ اجْتِماعِيّ .

وكما في لَوْحَةِ دَرْسِ التَّشْرِيحِ لَمْ يَرْسُمْ رامبرانْدت المَجْمُوعَةَ بالشَّكْلِ الرَّسْمِيّ المَأْلُوفِ بَلْ إِنَّهُ أَدْخَلَ فِيها حَتَّى صُوَرَ الأَوْلادِ والكِلابِ . لَقَدْ وَقَفَ كُلُّ فَرْدٍ مِنَ المَجْمُوعَةِ مُنْفَرِدًا لِوَضْعِ الصُّورَةِ ، ثُمَّ أَسْهَمَ الجَمِيعُ في دَفْعِ أَجْرِ الرَّسّامِ بِما يَتَناسَبُ والأَهَمِّيَّةَ المُعْطاةَ لَهُ في الصُّورَةِ .

وتُسَمَّى الصُّورَةُ « حارِسَ اللَّيْلِ » نِسْبَةً لِمَا بِها مِنْ أَضْواءٍ قَوِيَّةٍ وظِلالٍ، خُصُوصًا بَعْدَ أَنْ أَضْفَى عَلَيْها الزَّمَنُ لَوْنًا قاتِمًا . ولكِنَّها في الحَقِيقَةِ تُصَوِّرُ مَنْظَرًا نَهارِيًّا ، وٱسْمُها الأَصْلِيُّ هُوَ « ٱسْتِعْراضُ الحَرَسِ المَدَنِيّ تَحْتَ قِيادَةِ الكابْتِن فرانْس بانِنْج كُوك » .

ضابِطٌ يَتَّخِذُ الوَضْعَ المُناسِبَ لِرَسْمِهِ في الصُّورَةِ الَّتي تُعَدُّ تُحْفَةً فَنِّيَّةً لِرَمْبراندتَ وهِيَ « حارِسُ اللَّيْلِ » .



وَلَمْ يَكُنْ رامبرانْدت ماهِرًا في التَّلْوِينِ بالزَّيْتِ فَحَسْبُ ، بَلْ يُمْكِنُ اَعْتِبارُهُ أَعْظَمَ مَنْ نَقَشَ (الرَّواسِمَ) بالنَّمْشِ الحَمْضِيِّ عَلَى مَدَى العُصُورِ .

وكانَ النَّقْشُ يَجْرِي عَلَى لَوْحاتٍ نُحاسِيَّةٍ . ومِنَ اللَّوْحَةِ الواحِدَةِ يُمْكِنُ طَبْعُ عِدَّةِ نُسَخٍ ، ويَضْطَرُّ الحَفّارُ إلَى اَسْتِعْمالِ آلَةٍ قَوِيَّةٍ مِنَ الصُّلْبِ لِقَطْعِ الخُطُوطِ في النُّحاسِ كما في «النَّقْشِ عَلَى القُماشِ المُشَمَّعِ» . أَمَّا الحَفْرُ بِتَأْثِيرِ الحَوامِضِ فَأَسْرَعُ كَثِيرًا مِنْ ذلِكَ . فَتُغَطَّى اللَّوْحَةُ أَوَّلًا طَبَقَةٍ خَفِيفَةٍ مِنَ الشَّمْعِ أَوْ الوَرْنِيشِ ، ويَسْتَعْمِلُ الفَنّانُ سِنَّ الإبْرَةِ لِيَرْسُمَ بِخِفَّةٍ مُخْتَرِقًا طَبَقَةَ الشَّمْعِ فَقَطْ . ثُمَّ تُوضَعُ اللَّوْحَةُ في حَمّامٍ حِمْضِيٍّ فَيَأْكُلُ النُّحاسَ المَكْشُوفَ وبِذا يَنْطَبِعُ الرَّسْمُ عَلَى اللَّوْحَةِ النُّحاسِيَّةِ أَمّا عَمَلِيَّةُ الطِّباعَةِ فَواحِدَةٌ في كِلْتا الحالَتَيْنِ . إذْ تُحَبَّرُ اللَّوْحَةُ كُلُّها ، ثُمَّ تُمْسَحُ تارِكَةً الحِبْرَ في الخُطُوطِ المَحْفُورَةِ فَقَطْ . ثُمَّ تُضْغَطُ هذِهِ عَلَى الوَرَقَةِ في المِطْبَعَةِ . واسْتَعْمَلَ رَمبراندت هذِهِ الطَّرِيقَةَ في عَمَلِ كَثِيرٍ مِنَ الصُّوَرِ والمَناظِرِ الطَّبِيعِيَّةِ والدِّينِيَّةِ . ولَمْ يُخْبِرْ أَحَدًا عَنْ طَرِيقَتِهِ في حَفْرِ الرَّواسِمِ بالنَّمْشِ الحَمْضِيِّ . فَاخْتَفَى بِمَوْتِهِ كَثِيرٌ مِنْ أَسْرارِ المِهْنَةِ .

وَوَجَّهَ رمبراندت نَظَرَهُ إلَى رَسْمِ المَناظِرِ الطَّبِيعِيَّةِ . فكانَ يَسِيرُ مَسافاتٍ طَوِيلَةً عَلَى شاطِئِ نَهْرِ الأَمْستِل لِيَرْسُمَ المَناظِرَ . ولَمْ يُعِرْ لأَبْنِيَةِ الحَدِيثَةِ اهْتِمامًا فَغَضَّ النَّظَرَ عَنْ مَبْنَى دارِ البَلَدِيَّةِ الجَدِيدِ في أَمِسْتِرْدامَ ، ورَسَمَ الدّارَ القَدِيمَةَ الَّتي كانَتْ في طَرِيقِها إلَى الزَّوالِ . كَذلِكَ رَسَمَ طَواحِينَ الهَواءِ القَدِيمَةَ ، والكَنائِسَ المُتَداعِيَةَ لِلسُّقُوطِ . مُسْتَعْمِلًا الحِبْرَ والوَرَقَ ، ومَلَأَ صُوَرَهُ بالصَّيّادِينَ والنَّواتِيِّ والفَلّاحِينَ ، مُبَيِّنًا لَنا الحَياةَ اليَوْمِيَّةَ الَّتي كانَ يَحْياها أُولئِكَ النّاسُ في أَيّامِهِ .

رمبراندتُ يَرْسُمُ مَبْنَى البَلَدِيَّةِ القَدِيمَ في أَثْناءِ الهَدْمِ



وبَعْدَ مَوْتِ ساسْكِيا لَمْ يُمْكِنْهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ ثانِيَةً ، خَوْفًا مِنْ أَنْ يَفْقِدَ الثَّرْوَةَ الَّتي تَرَكَتْها لَهُ في وَصِيَّتِها . وفي أَواخِرِ أَيّامِهِ اتَّخَذَ مِنْ « هِنْدريكْيا ستُوفِلْز » صَدِيقَةً . وكانَتِ ابْنَةَ عَرِيفٍ في الجَيْشِ ، ومِنْ أُسْرَةٍ أَقَلَّ ثَراءً ومَرْكَزًا مِنْ أُسْرَةِ ساسْكِيا . وعَمِلَتْ هِنْدِريكْيا كَمُدِيرَةٍ لِلْمَنْزِلِ ومُرَبِّيَةٍ لِابْنِهِ تِيتُوسَ ، كما أَنَّها كانَتْ تُمَثِّلُ نَمُوذَجًا حَيًّا لِكَثِيرٍ مِنْ رُسُوماتِ رَمبرانْدت وصُوَرِهِ .

واسْتَمَرَّ رَمبرانْدت في إِسْرافِهِ . وفي الاسْتِزادَةِ مِنْ مُقْتَنَياتٍ ضَمَّها إِلَى مَجْمُوعاتِهِ ، ولَمْ يُسَدِّدْ ثَمَنَ المَنْزِلِ . وبِحُلُولِ عامِ ١٦٥٦ وَقَعَ في أَزْمَةٍ مالِيَّةٍ شَدِيدَةٍ ، اسْتَمَرَّتْ أَرْبَعَةَ أَعْوامٍ بِيعَتْ في نِهايَتِها كُلُّ مُكْتَنَزاتِهِ .

وأُعِدَّ كَشْفٌ بِمُقْتَنَياتِهِ احْتَوى عَلَى مِئاتِ الصُّوَرِ والرُّسوماتِ والتَّماثِيلِ ، كما كانَتْ هُناكَ خُوَذٌ ودُرُوعٌ وسِهامٌ وأَقْواسٌ وسَبْعُ آلاتٍ مُوسِيقِيَّةٍ وتَرِبَّةٍ وثَلاثَةَ عَشَرَ بُوقًا مِنَ الغابِ . واضْطُرَّ المِسْكِينُ رامبرانْدت إِلَى التَّخَلِّي عَنْ كُلِّ هٰذا ، بالإِضافَةِ إِلَى جُلُودِ الأُسُودِ ، وقُرُونِ الغِزْلانِ ، وسَبْعَةٍ وأَرْبَعِينَ مِنَ الحَيَواناتِ البَحْرِيَّةِ وحَتَّى عُصْفورِ الجَنَّةِ .

وفي سَنَةِ ١٦٦٠ تَرَكَ مَنْزِلَهُ مُضْطَرًّا ، وهُوَ المَنْزِلُ الَّذي ضَمَّهُ هُوَ وساسْكِيا عِنْدَما كانَتْ عَرُوسًا لَهُ . وانْتَقَلَ إِلَى مَنْزِلٍ مُتَواضِعٍ في الجانِبِ الآخَرِ مِنَ المَدِينَةِ .

مَجْمُوعاتُ رَمبرانْدت مَحْمُولَةٌ لِعَرْضِها لِلْبَيْعِ .



ولَمْ تَسْمَحْ لَهُ رابِطَةُ القِدّيسِ لُوقا الّتي كانَتْ تُشْرِفُ عَلى مالِيَّةِ أَعْضائِهِ أَنْ يَبيعَ صُورَهُ . ولكِنَّ تيتوس وهِنْدِريكْيا تَصَرَّفا كَوَكيلَيْنِ عَنْهُ ، ودَفَعا لَهُ ثَمَنَ أَعْمالِهِ .

وكَفَّ رَمبرانْدت عَنْ رَسْمِ الطُّيورِ والمَناظِرِ الطَّبيعِيَّةِ الكَبيرَةِ . واسْتَمَرَّ في رَسْمِ الأَشْخاصِ وتَعْليمِ التَّلاميذِ ، وكَفَّ النّاسُ عَنِ الإِعْجابِ بِأَعْمالِهِ ، وشَكا أَحَدُهُمْ قائِلًا : « إِنَّ الصِّباغَ سَميكٌ جِدًّا ، بِحَيْثُ إِذا وَضَعْتَ صُورَةَ شَخْصٍ ما عَلى الأَرْضِ أَمْكَنَكَ الْتِقاطُها مِنَ الأَنْفِ » . ومِنَ الصُّوَرِ الّتي صَوَّرَها لِنَفْسِهِ نَرى أَنَّهُ في سِنِّ السِّتّينَ أَصْبَحَ كَهْلًا ذا شَعْرٍ فِضِّيٍّ ، مُجَعَّدَ الجَبْهَةِ ، ومُهْمَلَ المَلْبَسِ .

وفي أَيّامِ رَمبرانْدت كانَ مُعْظَمُ الرَّسّامينَ يَنْتَمونَ لِلْبَلاطِ ، حَيْثُ يَرْسُمونَ صُوَرًا لِطَبَقَةِ الرّاقِيَةِ . أَمّا هُوَ فَقَدْ قيلَ عَنْهُ « إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَسْمَحُ لِأَعْظَمِ مُلوكِ الأَرْضِ بِمُقابَلَتِهِ في أَثْناءِ عَمَلِهِ . »

وكانَ يَتَمَتَّعُ بِمَوْهِبَةٍ عَجيبَةٍ في كَشْفِ الشَّخْصِيَّةِ ، ومُعالَجَةِ الأَضْواءِ والظِّلالِ ، لَمْ يُجارِهِ فيها أَحَدٌ .

وماتَ رَمبرانْدت سَنَةَ ١٦٦٩ حَزينًا بِمَوْتِ ابْنِهِ الّذي تُوُفِّيَ قَبْلَهُ بِعامٍ واحِدٍ ، وهُوَ لا يَزالُ في السّابِعَةِ والعِشْرينَ مِنْ عُمْرِهِ . ولَمْ يَكُنْ مَوْتُ رَمبرانْدت حَدَثًا في أَمِسْتِرْدامَ وَقْتَ وَفاتِهِ . أَمّا اليَوْمَ فَيُعْتَبَرُ رَمبرانْدت أَعْظَمَ الرَّسّامينَ الهُولَنْدِيّينَ قاطِبَةً .

رَمْبرانْدت المُسِنُّ وهِندريكيا ستوفلر يَتَمَشَّيانِ عَلى ضِفافِ النَّهْرِ المُتَجَمِّدِ .



ڤيرْمير (١٦٣٢ – ١٦٧٥)

كانَ رُوبنْز ورمبرانْدت أَعْظَمَ الرَّسّامِينَ الفَلَمَنْكِيِّينَ والهُولَنْدِيِّينَ ، غيرَ أَنَّهُ يُوجَدُ آخَرُونَ في تاريخِ الفَنِّ مِثْلُ « بيتر بروغِل » ١٥٢٥ – ١٥٦٩ الذي اشْتَهَرَ بِرَسْمِ مَناظِرِ حَياةِ الفَلّاحِينَ ، وسير أَنْتُوني ڤان دايك ١٥٩٩ – ١٦٤١ تِلْميذِ رُوبنْز الذي اشْتَهَر في انْجِلْترا بِتَصْويرِ الأَشْخاص ، وفرانز هالس ١٥٨٠ – ١٦٦٦ . وكانَ هُوَ أَيْضًا مُصَوِّرًا لِلأَشْخاص ، وقَدِ اشْتَهَر بِلَوْحَتِهِ الرّائِعَةِ « الفارِس الضّاحِك » ، وهؤُلاءِ الثَّلاثَةُ نَذْكُرُهُمْ عَلَى سَبيل المِثالِ فَقَطْ وفي القَرْنِ السّابِعَ عَشَرَ وهُوَ عَصْرُ ازْدِهارِ الرُّسُومِ الهُولَنْدِيَّةِ. كانَ مِنْ أَفْضَلِ الرَّسّامِينَ الهُولَنْدِيِّينَ « جانْ ڤيرْمير مِنْ دِلْفت .

وُلِدَ ڤيرْميرُ سَنَةَ ١٦٣٢ في نَفْسِ السَّنَةِ الَّتي رَسَمَ فِيها رَمبرانْدت لَوْحَةَ « دَرْسِ التَّشْرِيحِ »، وعَلَى أَثَرِ عَوْدَةِ رُوبنْز مِنْ إِنْجِلْترا . ولا يُعْرَفُ الكَثِيرُ عَنْ ڤيرمير ، إِذْ لَمْ يُكْتَبْ إِلّا قَليلٌ عَنْهُ ، ولَمْ يَتْرُكْ وَراءَهُ مُذَكِّراتٍ أَوْ خِطاباتٍ ، حَتَّى لَمْ يَرْسُمْ لِنَفْسِهِ صُورَةً ، فلا نَعْرِفُ كَيْفَ كانَ مَنْظَرُهُ ، ويُرَجَّحُ أَنْ يَكُونَ هُوَ نَفْسُهُ الرَّسّامَ المَوْجُودَ في لَوْحَتِهِ المُسَمّاةِ « الرَّسّامُ في الاسْتُودْيُو » الَّتي رَسَمَها . ولكِنَّ الرَّسّامَ يُولِينا فِيها ظَهْرَهُ ، ويَظُنُّ بَعْضُ الخُبَراءِ أَنَّ شَخْصَ المُوسيقارِ في صُورَةٍ أُخْرَى قَدْ يَكُونُ صُورَةً لِڤيرْمير نَفْسِهِ .

كانَ والِدُ ڤيرْميرَ ، رينيه ، يَعْمَلُ في نَسْجِ الحَريرِ . ويَصْنَعُ مِنْهُ أَنْسِجَةً مُزَرْكَشَةً لِعَمَلِ السَّتائِرِ والمَفْرُوشات . كما أَنَّهُ كـانَ يَمْتَلِكُ نُزُلًا عـامًّا ، ويَقُومُ بِتِجارَةِ التُّحَفِ الفَنِّيَّةِ . ومِنْ تَعَدُّدِ أَوْجُهِ نَشاطِهِ يُمْكِنُ الجَزْمُ بِأَنَّ رينيه كانَ قادِرًا عَلَى أَنْ يُهَيِّئَ حَياةً آمِنَةً لِابْنِهِ الَّذي احْتَكَّ بِدُنْيا الفَنِّ وهُوَ في سِنٍّ مُبَكِّرَةٍ .

ڤيرْميرُ الشّابُّ في مَتْجَرِ والِدِهِ لِلنَّسْجِ وبَيْعِ الصُّوَرِ .



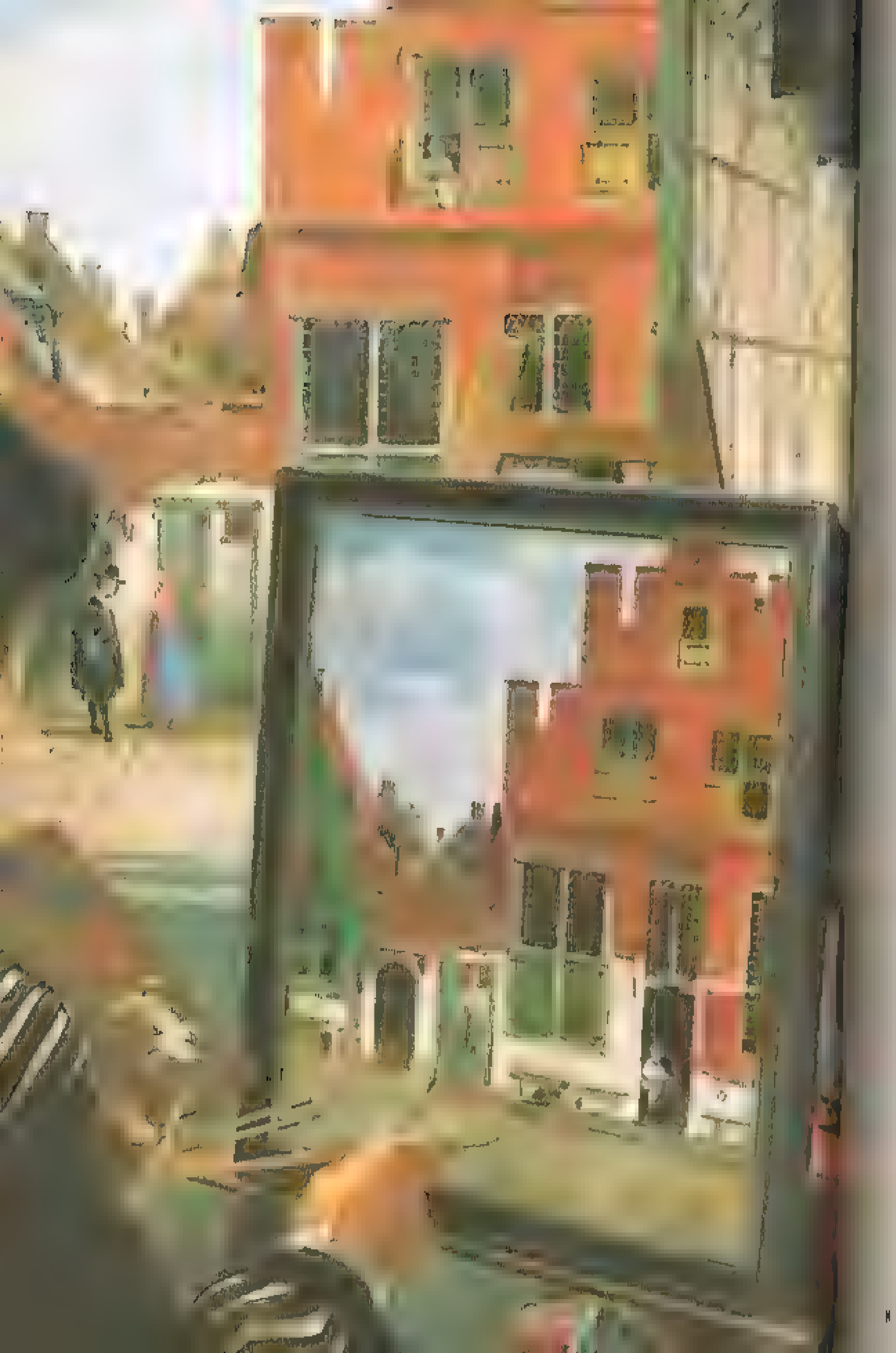
ولا نعْرِفُ شيْئًا عَنْ حَياتِهِ المَدْرَسِيَّةِ ، إلَّا أنَّهُ مِنَ البَديهِيِّ أنَّهُ كا يُعاوِنُ والِدَهُ في تَصْميمِ رُسُوماتِ الأَنْسِجَةِ في بَدْءِ حَياتِهِ الفَنِّيَّةِ . فلَمَّا بلغ الواحِدَةَ والعِشْرينَ مِنْ عُمْرِهِ أصْبَحَ أُسْتاذًا – أيْ أنَّهُ قَضَى في الدِّراسَةِ ستّة أعْوامٍ ، ولا نَعْلَمُ مَنْ هُوَ صاحِبُ الأَسْتُودْيُو الَّذي عَمِلَ فيهِ . وقَدْ ذُكر اسْمُ « كارِيل فابْريشيوس » أحَدِ تَلاميذِ رَمْبرانْدتَ عَلَى أنَّهُ كانَ مُدَرِّس فيرْمير . حَيْثُ قيلَ عَنْ فبْريشيوس بَعْدَ مَوْتِهِ في انْفِجارِ مُسْتَوْدَعِ البارُود في دِلْفْتَ عامَ ١٦٥٤ : « سَيَحْيا فَنُّ فابْريشيوسَ في فيرْميرَ » . وكانَ فيرْمير حينَئِذٍ شابًّا صَغيرًا غَيْرَ مَعْرُوفٍ كَفَنَّانٍ . ولكِنْ كانَ يُنْظَرُ إلَيْهِ عَلَى أنَّهُ أبْرز تَلاميذِ فابْريشيوسَ .

وفي الثَّالِثَةِ والعِشْرينَ مِنْ عُمْرِهِ تَزَوَّجَ فيرْميرُ «كاتْرينا بُولْنَز» . وعاش في بَيْتِ والِدِهِ حَيْثُ كانَ المَصْنَعُ فَوْقَ النُّزُلِ ، وكَذلِكَ مَتْجَرُ الفُنُونِ .

وبَعْدَ عامَيْنِ ماتَ أبُوهُ ، وآلَ لِفيرْميرَ النُّزُلُ والمَتْجَرُ ، وهكَذا أصْبح وهُوَ في سِنِّ الثَّالِثَةِ والعِشْرينَ مِنْ عُمْرِهِ ، فَنَّانًا في مَرْكَزٍ يُحْسَدُ عَلَيْهِ ، فقَدْ كانَ دَخْلُهُ مِنَ النُّزُلِ والمَتْجَرِ كافِيًا لِسَدِّ حاجَةِ أُسْرَتِهِ وأُمِّهِ الأَرْمَلَةِ ، وأصْبح هُوَ حُرًّا يَرْسُمُ ما يَشاءُ .

وصُوَرُ فيرْميرَ تَتَّسِمُ بِطابَعِ الجِدِّ والوَقارِ ، وعَدَمُ وُجُودِ سِجِلٍّ لِتاريخ حَياتِهِ يَدُلُّ عَلَى أنَّ جانَ فيرْمير لَمْ يَكُنْ ذا شَخْصِيَّةٍ بارِزَةٍ ، ولَوْ أنَّهُ كانَ مِ أعْظَمِ الرَّسَّامينَ . ويُرَجَّحُ أنَّهُ عاشَ مَعَ كاتْرينا وأطْفالِهِما الثَّمانِيَةِ الحَياة المَنْزِلِيَّةَ الهادِئَةَ ، الَّتي كانَ يَحْياها أيُّ مُواطِنٍ مُحْتَرَمٍ في دِلْفْتَ .

فيرْميرُ مَعَ أُسْرَتِهِ



ودلفتُ - مِثْلُ لَيْدِنَ وأمستِرْدامَ - مَدينَةٌ قَديمَةٌ تَخْترِقُها القَنواتُ ، وتُحيطُ بِشَوارِعِها الأَشْجارُ ، وقَدِ اشْتُهِرَتْ دائِمًا بِصِناعَةِ الصّيني المُلَوَّن باليَدِ باللَّوْنَيْنِ الأَبْيَضِ والأَزْرَقِ ، بِرُسُومٍ كانَ يَجْلِبُها قُدَماءُ الرَّحّالَةِ مَعَهُمْ مِنَ الشَّرْقِ الأَقْصَى .

ونَعْرِفُ مِنْ لَوْحَتَيْنِ مِنْ صُوَرِ فِيرْمِيرَ ما كانَتْ عَلَيْهِ دِلْفت مُنْذُ ثَلاثمِئَةِ عامٍ ؛ إحْداهُما مَنْظَرُ دلفتَ الشَّهِيرَةِ ، تُصَوِّرُ المَدينَةَ عَبْرَ قَناةٍ فَنَرى البَوّابَةَ وبُرْجَ الحَرَسِ والأَدْيِرَةَ والصَّنادِلَ راسِيَةً عَلَى رَصيفِ الميناءِ . يَكْسُو ذلِكَ كُلَّهُ ضَوْءٌ لُؤْلُؤِيٌّ تَتَميَّزُ بِهِ هُولَنْدا ، واللَّوْحَةُ مِنْ أَشْهَرِ صُوَرِ المُدُنِ الّتي صُوِّرَتْ عَلى مَدى العُصُورِ ، وتُوازِيها شُهْرَةً ، الصُّورَةُ الثّانِيَةُ ، وهِيَ مَنْظَرُ شارِعٍ في دِلْفتَ . وقَدْ رَسَمَها فِيرْمِيرُ مِنْ نافِذَةِ بَيْتِهِ ، وفيها نَرى مَبْنًى عَتيقًا بالطُّوبِ فَوْقَ شارِعٍ مُبَلَّطٍ بالحَجَرِ ، ومِنْ خِلالِ فَتَحاتِ الأَبْوابِ البَيْضاءِ نَرى النِّساءَ يَقُمْنَ بِأَعْمالِهِنَّ ، ويُصَوِّرُ فيها الفَنّانُ الأَرْصِفَةَ المُبَلَّطَةَ ، والنَّوافِذَ المُؤَطَّرَةَ بالرَّصاصِ ، وخَشَبَ النَّوافِذِ الأَسْوَدَ ، والطُّوبَ النّاعِمَ ، ويَظْهَرُ كُلُّ هذا في الصُّورَةِ بِشَكْلٍ رائِعٍ . وهاتانِ اللَّوْحَتانِ مِنْ أَعْمالِ فِيرْمِيرَ هُما الوَحيدَتانِ اللَّتانِ تُصَوِّرانِ الحَياةَ الخارِجِيَّةَ .

ولَمْ تَكُنْ دِلْفتُ مَرْكَزًا لِلنَّشاطِ الفَنِّيِّ ، حَتّى جاءَ فِيرْمِيرُ ، فَصارَ يَزُورُها كَثيرٌ مِنَ الرَّسّامِينَ المَعْرُوفينَ مِثْل « كارِل فابْرِيشيوس ، وبولاس بوتر ، وبيتَردِي هوش ، وجانْ ستين » . واشْتَرَكَ فِيرْمِيرُ في رابِطَةِ القِدّيس لُوقا كَباقي الرَّسّامِينَ . ومِمّا يَدُلُّ عَلى عُلُوِّ مَقامِهِ أَنَّهُ نُصِّبَ عَلَيْها رَئِيسًا مَرَّتَيْنِ ، ولَوْ أَنَّ ذلِكَ قَدْ يَرْجِعُ إلى شُهْرَتِهِ كَتاجِرِ تُحَفٍ فَنِّيَّةٍ وخَبيرٍ ، لأَنَّ فَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا .

يَرْسُمُ فِيرْمِير مِنْ نافِذَتِهِ اللَّوْحَةَ الشَّهيرَةَ « شارِعٌ في دِلْفت »



وبَيْنَما كانَ الفَنّانونَ الإيطاليُّونَ يرْسُمونَ الصُّوَرَ الدِّينيَّةَ عَلى جُدْرانِ كَنائِسِهِمْ ؛ فَضَّلَ الفَنّانونَ الهولَنْديُّونَ والفَلَمَنْكِيُّونَ رَسْمَ مَناظِرَ مِنَ الحَياةِ اليَوْمِيَّةِ العامَّةِ ، ورَسْمَ صُوَرِ الأَشْخاصِ . ولَمْ يَكُنْ فِيرمِيرُ يُسْتَثْنى مِنْ هٰذا . فكُلُّ صُوَرِهِ تَقْرِيبًا تُصَوِّرُ الحَياةَ اليَوْمِيَّةَ العادِيَّةَ .

وأُولِعَ فِيرْمِيرُ بِرَسْمِ الأَشْخاصِ مَعَ آلاتِهِمُ الموسيقِيَّةِ . فهُناكَ صُورَتانِ لِنِساءٍ يَعْزِفْنَ عَلَى العُودِ ، وأُخْرَى لِشابَّةٍ صَغيرَةٍ مَعَ قِيثارَتِها ، وفي مُتْحَفِ الصُّوَرِ الأَهْلِيِّ في لَيْدِن تُوجَدُ لَوْحَتانِ شَهيرَتانِ لِنِساءٍ يَعْزِفْنَ عَلى آلَةٍ تُشْبِهُ البِيانُو . ثُمَّ يُصَوِّرُ لَنا الفَلَكِيَّ مَعَ كُراتِهِ الأَرْضِيَّةِ ، والجُغْرافِيَّ بِخَرائِطِهِ . وفَوْقَ هٰذا كُلِّهِ يُرينا مَشاهِدَ ساحِرَةً لِرَبّاتِ البُيوتِ الهولَنْديّاتِ في أَثْناءِ قِيامِهِنَّ بالعَمَلِ اليَوْمِيِّ . فمِنْهُنَّ مَنْ يَصْنَعْنَ الدّانْتِلّا ، أَوْ يَكْتُبْنَ الخِطاباتِ ، أَوْ يَتَحَلَّيْنَ باللآلِئِ أَوْ يَعْمَلْنَ في مَطابِخِهِنَّ .

وكُلُّ هٰذِهِ الصُّوَرِ يُظَنُّ أَنَّ فِيرْمِيرَ رَسَمَها في الأَسْتُودْيُو . ففيها يَنْعَكِسُ الضَّوْءُ مِنْ نافِذَةٍ عالِيَةٍ عَلَى الجَنْبِ الأَيْسَرِ ، وكَثيرًا ما نَرى نَفْسَ الأَرْضِ المُبَلَّطَةِ والسَّتائِرِ وغِطاءِ المِنْضَدَةِ . وعَلَى الحائِطِ تَدُلُّ خَرائِطُ فِيرْميرَ عَلى اهْتِمامِهِ بالعالَمِ ، وهٰذا الاهْتِمامُ يَنْطَبِقُ عَلى كُلِّ الشَّعْبِ الهولَنْدِيِّ في ذٰلِكَ العَهْدِ – عَهْدِ الاسْتِطْلاعِ والاسْتِكْشافِ .

وصُوَرُهُ كُلُّها مُلَوَّنَةٌ بأَلْوانٍ جَميلَةٍ مُنْسَجِمَةٍ ومَوْزُونَةٍ في نِسَبِها الهَنْدَسِيَّةِ . وكُلُّ شَيْءٍ فيها مُلَوَّنٌ بِدِقَّةٍ وعِنايَةٍ وَواقِعِيَّةٍ تُذَكِّرُنا بِصُوَرِ «خِداعِ النَّظَرِ» ، وهِيَ صُوَرٌ مَرْسُومَةٌ بِدَرَجَةٍ مِنَ الواقِعِيَّةِ والحَقيقَةِ تَخْدَعُ النّاظِرَ إِلَيْها . فيَظُنُّها أَشْياءَ مَوْجُودَةً فِعْلًا .



وَلَمْ يَبْقَ مِنْ لَوْحاتِ فِيرْمِيرَ غَيْرُ القَلِيلِ ، وَمَعَ جَوْدَتِها لا يُمْكِنُ أَنْ تُضاهِيَ بِلَوْحاتِ رُوبِنْزَ وَرَمْبراندت العَظِيمَةِ .

إِسْتَعْمَلَ فِيرْمِيرُ آلَةً تُعْرَفُ « بِالكامِيرا المُظْلِمَةِ » ، وَكانَ كَثِيرُونَ مِنْ رَسّامِي ذٰلِكَ الوَقْتِ يَسْتَعْمِلُونَها وَهِيَ آلَةٌ في مُنْتَهى البَساطَةِ . تَتَكَوَّنُ مِنْ صُنْدُوقٍ صَغِيرٍ بِهِ ثُقْبٌ في مُقَدَّمَتِهِ ، وَلَوْحٌ مِنْ زُجاجٍ مُسَنْفَرٍ في الخَلْفِ ، ثُبِّتَ عَلَيْهِ غِطاءٌ لِرَأْسِ الفَنّانِ . فَكانَ المَنْظَرُ أَمامَ الكامِيرا يَظْهَرُ عَلَى الزُّجاجِ فَيُخَطِّطُهُ الفَنّانُ . ثُمَّ يَنْقُلُهُ عَلَى لَوْحَةٍ مُعَدَّةٍ لِلتَّلْوِينِ . وَلا شَكَّ في أَنَّ العَمَلِيَّةَ في مَجْمُوعِها كانَتْ عَسِيرَةً وَمُتْعِبَةً ، وَخاصَّةً عِنْدَ اسْتِعْمالِ أَنْواعِ الكامِيرا البِدائِيَّةِ الَّتِي كانَتْ تُعْطِي الصُّورَةَ مَقْلُوبَةً .

وَلَيْسَ هُناكَ دَلِيلٌ ثابِتٌ نَعْرِفُ مِنْهُ الآلَةَ الَّتِي اسْتَعْمَلَها فِيرْمِيرُ . وَلٰكِنْ كُلُّ ما يَهُمُّنا هُوَ تَأْثِيرُها عَلَى أَعْمالِهِ . فَالصُّورَةُ المُقابِلَةُ تُبَيِّنُ كَيْفَ أَنَّ الانْعِكاسَ عَلَى لَوْحِ الزُّجاجِ بالَغَ في النِّسَبِ المَنْظُورَةِ . فَالأَشْخاصُ يَظْهَرُونَ صَغِيرِي الأَحْجامِ خَلْفَ مِنْضَدَةٍ كَبِيرَةٍ جِدًّا . وَلَوْلا أَنَّ فِيرْمِيرَ كانَ أُسْتاذًا في فَنِّ التَّلْوِينِ وَدَقِيقًا في رَسْمِهِ ، لَما كانَ أَمْكَنَهُ خَلْقُ اللَّوْحاتِ العَظِيمَةِ الَّتِي عَمِلَها مِنْ هٰذِهِ المَجْمُوعاتِ . وَلا تُظْهِرُ صُوَرُ فِيرْمِيرَ كُلُّها أَثَرَ اسْتِعْمالِ الكامِيرا المُظْلِمَةِ بِوُضُوحٍ كامِلٍ مِثْلَما تُظْهِرُها هٰذِهِ اللَّوْحَةُ الَّتِي تَمْتَلِكُها المَلِكَةُ إِلِيزابِثُ الثّانِيَةُ مَلِكَةُ بِرِيطانِيا الحالِيَّةُ .

فِيرْمِيرُ يَسْتَعْمِلُ الكامِيرا المُظْلِمَةَ .



ومِنَ المُؤسِفِ أنَّ صُوَرَ فيرْميرَ لَمْ تَلْقَ إعْجابًا في أثْناءِ حَياتِهِ ، وفي سَنَةِ ١٦٦٣ زارَ أَحَدُ النُّبلاءِ الفَرَنْسِيِّينَ « بَلْتازار دي مُونْكُنيز » دِلفْتَ وقالَ : « قابَلْتُ الفَنّانَ فيرْميرَ ، ولَمْ يَكُنْ مَعَهُ شَيْءٌ مِنْ أعْمالِهِ . ولكِنّا رَأَيْنا صُورَةً لَهُ في مَنْزِلِ أَحَدِ الخَبّازِينَ اشْتَراها بِمَبْلَغِ ٦٠٠ فُلُورِنٍ . وفي نَظَري أنَّ سِتَّةَ بِستولاتٍ كَثيرَةٌ عَلَيْها » ، والبِسْتُولُ عُمْلَةٌ إسْبانِيَّةٌ صَغيرَةٌ . وهذا يَدُلُّ عَلَى قِلَّةِ تَقْديرِ دي مُونْكُنيز لِعَمَلِ فيرْميرَ .

وقَدْ يُدْهِشُنا اليَوْمَ عَدَمُ اسْتِحْسانِ النّاسِ لِصُوَرِ فيرْميرَ في عَصْرِهِ . ولكِنْ تَزُولُ دَهْشَتُنا إذا ما قارَنّاها بِأعْمالِ فَنّاني عَصْرِهِ . فمُعْظَمُ صُوَرِ الحَياةِ الهُولَنْدِيَّةِ بِجانِبِ قيمَتِها التَّصْويرِيَّةِ تَحْتَوي عَلَى قِصَصٍ وأَحْداثٍ صَغيرَةٍ كَخادِمٍ غَلَبَهُ النُّعاسُ أوْ صَبِيٍّ خَبيثٍ ، أوْ تُعْطي مَوْعِظَةً عَنْ وَيْلاتِ الفَقْرِ ، أوْ جانِبًا آخَرَ مِنْ نَواحي الحَياةِ . أمّا صُوَرُ فيرْميرَ فتَعْتَمِدُ عَلَى قيمَتِها كَصُورَةٍ فَحَسْبُ . فيَظْهَرُ لَنا جَمالُ الأَلْوانِ المُنَسَّقَةِ مَعَ بَعْضِها ، وتَبايُنُ النَّسْجِ النّاعِمِ والخَشِنِ في اللَّوْحَةِ ، وكانَ يَرْسُمُ صُوَرَهُ بِطَريقَةٍ تَكادُ تَكُونُ هَنْدَسِيَّةً ، فيُوازِنُ بَيْنَ شَكْلٍ قائِمٍ في جُزْءٍ مِنَ الصُّورَةِ وآخَرَ . وهذِهِ القِيَمُ النَّظَرِيَّةُ قَدْ سَبَقَ فيها فيرْميرُ عَصْرَهُ بِكَثيرٍ . فلِذلِكَ لَمْ يَفْهَمْهُ مُعاصِروهُ .

ورُبَّما كانَ أثَرُ اسْتِعْمالِ الكاميرا المُظْلِمَةِ في صُوَرِهِ سَبَبًا آخَرَ لإعْراضِ مُعاصِريهِ عَنْ أعْمالِهِ . أمّا اليَوْمَ ، بَعْدَ أنِ اعْتَدْنا الكاميرا ، فإنَّنا لا نَكادُ نُلاحِظُ أثَرَها في أعْمالِ فيرْميرَ . أمّا في عَصْرِ فيرْميرَ فقَدْ كانَتْ مَلْحُوظَةً . وقالَ عَنْها أَحَدُ النُّقّادِ : « آثارُ الكاميرا مُلْفِتَةٌ لِلنَّظَرِ ، ولكِنَّها كاذِبَةٌ »

دي مُونْكُنيز غَيْرُ مُعْجَبٍ بِلَوْحَةٍ لِفيرْميرَ اشْتَراها الخَبّاز



لَمْ يَفُزْ فيرْميرُ ، في حَياتِهِ كُلِّها ، بالنَّجاحِ الَّذي حَقَّقَهُ رَمبراندتُ في صَدْرِ حَياتِهِ وروبنْزُ طُولَ حَياتِهِ .

واسْتَمَرَّ فيرْميرُ في الاتِّجارِ بالصُّوَرِ الفَنِّيَّةِ ، واعْتُبِرَ خَبيرًا فيها . ويُرْوَى أَنَّ أَحَدَ تُجّارِ أَمسْتِرْدامَ باعَ لِنائِبِ براندنبرج بَعْضَ الصُّوَرِ بِثَمَنٍ باهِظٍ ، ولَمْ يَكُنِ النّائِبُ مُطْمَئِنًّا لَهُ ، فَدَعا فيرْميرَ ، واسْتَشارَهُ ، وأَعْرَبَ فيرْميرُ عَنْ رَأْيِهِ بِأَنَّ الصُّوَرَ عَديمَةُ القيمَةِ .

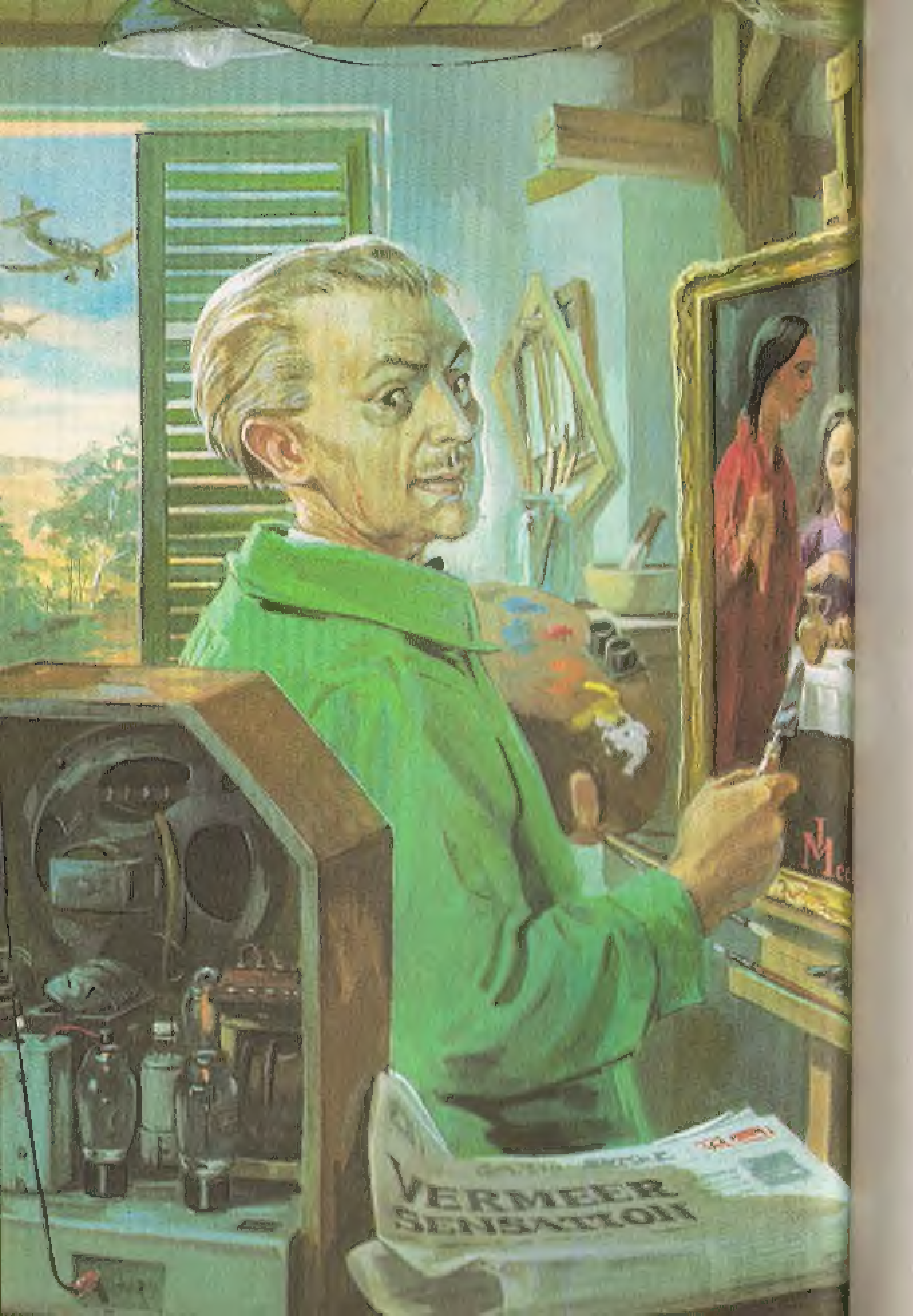
وفي سَنَةِ ١٦٧٢ أَعْلَنَ مَلِكُ فَرَنْسا الحَرْبَ عَلَى الأَراضي المُنْخَفِضَةِ ، وأَثَّرَ ذلِكَ في أَعْمالِ فيرْميرَ ، فاضْطُرَّ إِلَى تَرْكِ بَيْتِهِ الواقِعِ وَسَطَ المَيْدانِ ، لِيُقيمَ في مَسْكَنٍ أَصْغَرَ مِنْهُ .

وماتَ فيرْميرُ عامَ ١٦٧٥ عَنْ ثَلاثَةٍ وأَرْبَعينَ عامًا ، تارِكًا كاتْرينا المِسْكينَةَ وثَمانِيَةَ أَطْفالٍ مُفْلِسينَ ، واضْطُرَّتْ كاتْرينا أَنْ تُعْطِيَ اثْنَتَيْنِ مِنْ لَوْحاتِهِ لِلخَبّازِ ، وعِشْرينَ لَوْحَةً أُخْرَى لِصاحِبَةِ مَتْجَرٍ تَسْديدًا لِدُيونِها ، وتَمَكَّنَتْ في النِّهايَةِ مِنْ تَسْديدِ كُلِّ دُيونِ فيرْميرَ .

وتَرَكَ فيرْميرُ نَحْوَ أَرْبَعينَ لَوْحَةً أُسْدِلَ عَلَيْها سِتارُ النِّسْيانِ ما يَقْرُبُ مِنْ مِئَتَيْ عامٍ ، حَتَّى زارَ السِّيرْ جُوشوا رينُولْدز ، أَوَّلُ رَئيسٍ لِلأَكاديمِيَّةِ البَريطانِيَّةِ هُولَنْدا في أَواسِطِ القَرْنِ الثّامِنَ عَشَرَ ، وصَرَّحَ بِأَنَّ لَوْحَةَ فيرْميرَ « خادِمَةٌ تَصُبُّ اللَّبَنَ » كانَتْ أَرْوَعَ ما رَأَى هُناكَ .

ولَمْ يُعْتَرَفْ بِنُبوغِهِ حَتَّى القَرْنِ التّاسِعَ عَشَرَ ، حينَ بَدَأَ الفَرَنْسِيُّونَ الانْطِباعِيُّونَ يَعْمَلُونَ بِأَفْكارٍ مُماثِلَةٍ لِأَفْكارِهِ ، ولَوْحاتُ فيرْميرَ اليَوْمَ مَرْغُوبٌ فيها كَثيرًا .

كاتْرينا في طَريقِها لِتَسْديدِ دُيونِ فيرْميرَ بِلَوْحاتِهِ .



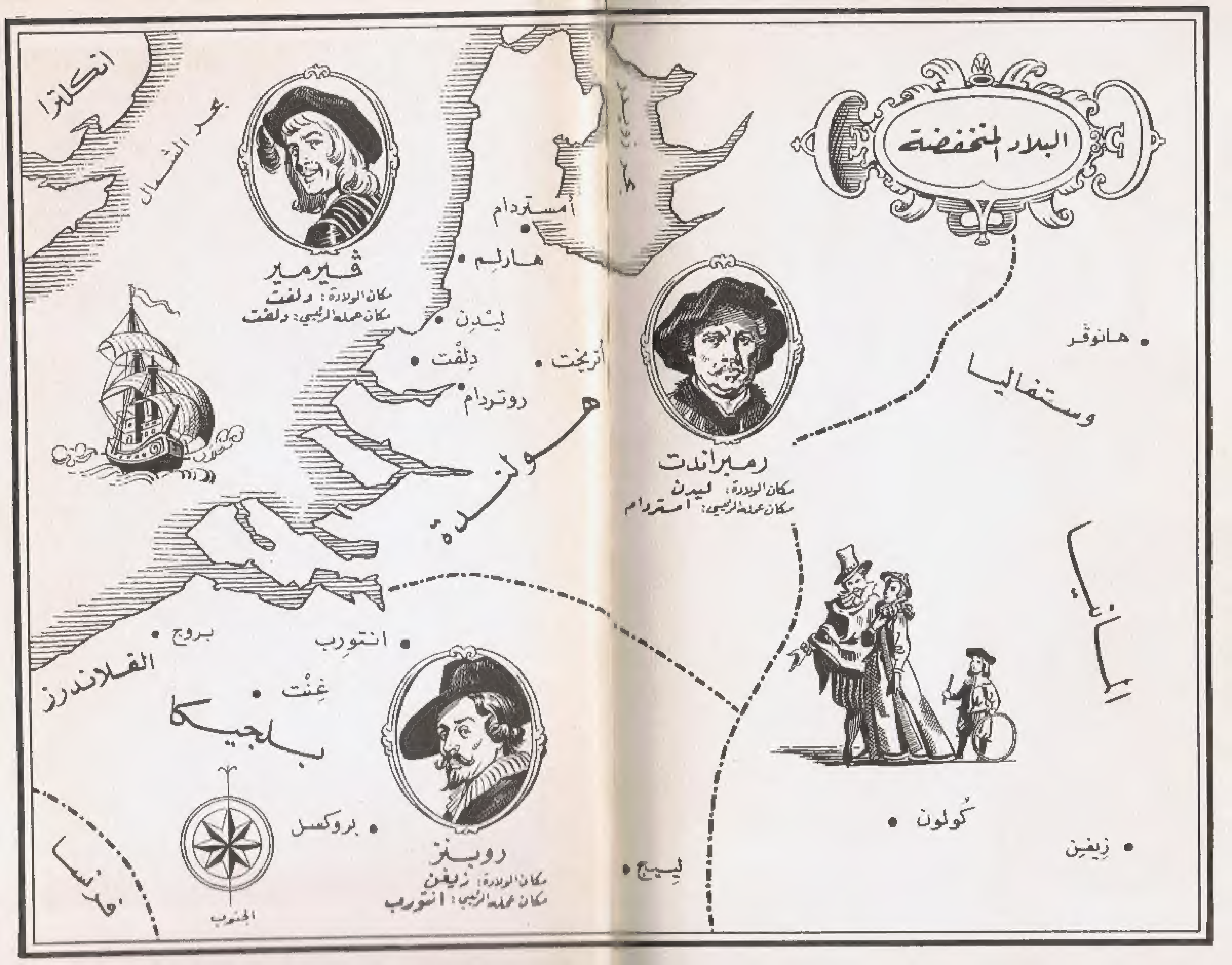
ولَوْحاتُ فِيرْميرَ قَليلَةٌ نِسْبِيًّا ، يَتَهافَتُ عَلَيْها جامِعُو الصُّوَرِ وأَصْحابُ المَتاحِفِ ، وهُناكَ حِكايَةٌ حَقيقِيَّةٌ أُشيعَتْ عَنْ رَسّامٍ هُولَنْدِيٍّ يُدْعَى « فَانْ ميجرْنَ » ، قامَ بِتَقْليدِ بَعْضِ أَعْمالِ فِيرْميرَ ما بَيْنَ عامَيْ ١٩٣٥ – ١٩٤٥ .

أَغْضَبَ فَانْ ميجرْنَ احْتِقارُ النُّقّادِ لِصُوَرِهِ ، فَصَمَّمَ عَلَى تَقْليدِ لَوْحاتِ فِيرْميرَ . وبَعْدَ تَجارِبَ عَديدَةٍ أَفْلَحَ في إِنْتــاجِ صِباغٍ صُلْبٍ ، كالَّذي تَتَميَّزُ بِهِ الصُّوَرُ القَديمَةُ جدًّا ، واسْتَعْمَلَ خَيْشَ لَوْحاتٍ قَديمَةٍ بَعْدَ أَنْ مَسَحَ ما كانَ عَلَيْها مِنْ صُوَرٍ أَصْلِيَّةٍ . وكَوَّنَ أَلْوانَ فِيرْميرَ الزَّرْقاءَ مِنَ اللازَوَرْدِ الجَميلِ وهُوَ حَجَرٌ لَيْسَ في نَفاسَةِ الأَحْجـارِ الكَريمَـةِ ، وكَوَّنَ الأَصْفَرَ مِنْ مَسْحُوقِ الطَّمْيِ والصَّمْغِ ، وخَدَعَ الجَميعَ بِصُوَرِهِ ، وباعَ أَوَّلَ صُورَةٍ لِمُتْحَفِ بُويْمانَ في رُوتِرْدامَ بِمَبْلَغِ ٦٠,٠٠٠ جُنَيْهٍ . ومَجْمُوعُ ما أَنْتَجَهُ فَانْ ميجرْن ٦ صُوَرٍ لِفِيرْميرَ ، تَقاضَى ثَمَنَها نِصْفَ مِلْيُونِ جُنَيْهٍ .

وحَصَلَ المارِيشالُ غُورِنْغ – أَحَدُ قُوّادِ النّازِيَةِ عَلَى الصُّورَةِ السّادِسَةِ ، وتَصِلُ هٰذِهِ القِصَّةُ العَجيبَةُ قِمَّتَها بَعْدَ انْتِهاءِ الحَرْبِ ، عِنْدَما وُجِدَتْ هٰذِهِ اللَّوْحَةُ ضِمْنَ مُقْتَنَياتِ غُورِنْغَ ، وقُبِضَ عَلَى فَانْ ميجرْنَ بِتُهْمَةِ التَّضامُنِ مَعَ العَدُوِّ ، وفَضَّلَ فَانْ ميجرْن الاعْتِرافَ بالتَّزْويرِ ، عَلَى أَنْ يُعْتَبَرَ خائِنًا لِبَلَدِهِ . وثَبَتَتْ صِحَّةُ دَعْواهُ عِنْدَما قامَ بِتَقْليدِ صُورَةٍ أُخْرَى أَمامَ شُهُودٍ ، وحُكِمَ عَلَيْهِ بالسِّجْنِ مُدَّةَ عامٍ ، لكِنْ سُمِـحَ لَهُ أَنْ يَعُودَ لِبَيْتِهِ ، حَيْثُ ماتَ بَعْدَ فَتْرَةٍ وَجيزَةٍ .

أَثارَتْ هٰذِهِ القِصَّةُ هَزَّةً عَنيفَةً ، وقَدْ تَكُونُ أَكْبَرَ قِصَّةِ تَزْويرٍ عَلَى مَدَى العُصُورِ .

فَانْ ميجرْنُ يُزَوِّرُ إِحْدَى صُوَرِ فِيرْميرَ .



البلاد المنخفضة
انكلترا
بحر الشمال
أمستردام
هارلم
ليدن
دلفت
أتريخت
روتردام
هولندة
ڤيرمير
مكان الولادة: دلفت
مكان عمله الرئيسي: دلفت
رمبراندت
مكان الولادة: ليدن
مكان عمله الرئيسي: أمستردام
هانوڤر
وستفاليا
بروج
انتورب
الفلاندرز
غنت
بلجيكا
بروكسل
روبنز
مكان الولادة: زيغن
مكان عمله الرئيسي: انتورب
الجنوب
فرنسا
ليبيج
كولون
زيغن

سِلسِلَة الفَنّ

(١) الفَنَّانُون العِظام

(الجزء الأول – روبنز ، رمبراندت ، ڤيرمير)

(٢) الفَنَّانُون العِظام

(الجزء الثاني – ليوناردو دافنشي ، مايكل انجلو ، رفاييل)

(٣) الفَنَّانُون العِظام

(الجزء الثالث – ڤان كوخ ، جوجان وسيزان)

Series 701/Arabic
